الإمام الممتحن

أحمد بن حنبل

« أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لاوالله ، ماتقوى على مايقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد » .

يحيى بن معين

عن مجلة

المسلمون

مع العارفين

الإمام الممتحن

أحمد بن حنبل

« أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لاوالله ، مانقوى على مايقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد » .

يحيى بن معين

عن مجلة

المسلمون

مع العارفين

القاهرة

١٣٧٣

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة تليفون ٢٩٣٦٤



بسم الله الرحمن الرحيم

قرأت سيرته منذ سنوات ، وتحدثت بها إلى بعض إخوانى فيما كانوا يحضرون من دروس الفجر ، فكنت كلما تمثلته فى خيالى بدا لى كأنه علم أشم ، شاهق الأركان ، تغيب فى زرقة السماء ذراه المتسامية الرفيعة ، وتمتد أكنافه فى عرض الأفق فلا يأتى النظر على غايته . . . فإذا أردتُ القول عنه شق علىّ أن أجد الطرَف الذى أتناول منه الحديث .

تلك واحدة ، والأخرى أنه حفر فى قلبى ثغرة عميقة من الأسى الحى المتجدد ؛ حفرها بصبره العجيب على الفقر والمرض والمحنة والسجن ، والورع فى كل حال ، حتى أيأس أعلام زمانه أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الخشونة التى قدرت له ، حتى قال يحى بن معين — وهو من هو جلالة شأن ورفعة منزلة — « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد » . . . بل حتى وفدت عليه قلوب الناس مقرة له بالإمامة فى الورع والفقه والزهد والصبر ؛ قال إبراهيم بن متة السمرقندى سألت عبد الله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل : أإمام هو ؟ فقال : أىْ والله ! وكأفضل ما يكون الإمام ! إن أحمد أخذ بقلوب الناس ، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة ! .

حفر هذه النقرة العميقة بصبره الجلد العجيب ، فما ذكرته إلا أحسست معينها الحى المتجدد يجيش فى أغوارها بوجدانه الرقيق الأسى . . . فيجتمع الإعجاب بالطود الأشم الساحق الشامخ بالأسى الرقيق العميق المتجدد ، وتأتلف منهما صورة أحببتها أصدق الحب : صورة لا تطل علىّ بعينين . ولا أذنين ، ولا وجه جميل أو دميم ، ولا جسم طويل أو قصير ؛ وإنما بمعنى ضخم : هو الحقيقة التى عاشت فى هذه الأرض حيناً باسم أحمد بن حنبل ! .

لقد كان شيخاً طويلا ، مخضوباً ، أسمر شديد السمرة ، ولكن شيئاً من تلك الصفات لا أثر له فى الصورة الوجدانية التى تبدو لى فيها حقيقة هذا الإمام الجليل رضى الله عنه .

ومع ذلك كله فهو سهل واضح ، لا تعقيد فى شخصه ولا غموض ، شأنه فى ذلك شأن كل حقيقة سافرة موطأة الأكناف . . . فإذا أردت أن تعرفه فاعرف عقلا نقياً شخّص لى الإسلام القوى الواضح ، لا فى أحكام وقواعد ونظريات ، وإنما فى متون سيرة رسول الله ﷺ . . . فثبت همه على تلك المتون متابعاً خطو نبيه ﷺ فى كل ما يعرض له من جليل الأمر أو دقيقه ، ومن حسيه أو معنويه ، لا يحيد عنها ولا يزيغ قيد شعرة . . . وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحته هوة سحيقة مهلكة ، كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه ، وجده فى الاستمساك به ،

وحذره أن يميل أو يهلك ؛ فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر من سنة رسول الله ﷺ فى ورع وجد ووقار حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه ؛ فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته ، قال خلف بن سالم : كنا فى مجلس يزيد ابن هارون — المحدث الكبير فى واسط — فخرج يزيد مع مستمليه فتنحنح أحمد بن حنبل — وكان معنا فى المجلس — فقال يزيد : من المتنحنح ؟ فقلنا : أحمد بن حنبل ، فضرب بيده على جبينه وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد ها هنا حتى لا أمزح ؟! .

تمثل ذلك كله ، وتمثل معه صبراً عجيباً لا يدركه الوهن ولا الترخص ، صبراً يمتاز بالجدة والقوة حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ له الحادثة من الحوادث أن صبره فيها هو كل ما تجمع فى طاقته ، أو أنها استنفدت كل ما فى طبعه من طاقة الصبر ، وأنك لن تجد هذا الطبع إلا مقصراً متخلفاً عن ذلك الشأو فيما تستقبل من بقية الحوادث . . . فإذا انتقلت معه ، واستقبلت ، رأيت العجب ، وأدركتك الدهشة والحيرة مما يتلاحق أمامك من آيات هذا الطبع السخى الصبور .

ذلك كله هو أحمد بن حنبل : عقل نقى . . . وهمة منعقدة بآثار رسول الله ﷺ . . . وصبر لا يغيض له معين ، ولا تهن له قوة ، ولا تبلى له جدّة ! .

بدأ يحضر مجالس العلماء الكبار ويستمع إلى حديث رسول الله ﷺ وسنه خمس عشرة سنة أو ست عشرة ، يحليه طبعه الأبيّ ، وورعه العميق ، وصمته الوقور ، فما لبث أن ذاع صيته ، وصار المشار إليه من بين أقرانه حتى قال الهيثم بن جميل : إن لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفضيل بن عياض حجة على أهل زمانه ، وأظن هذا الفتى — إن عاش — سيكون حجة على أهل زمانه ؛ وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد كان يجمع الحديث جمع الإمام الفقيه ، لا جمع الإمام الراوية فحسب ؛ فكان يجيل عقله النقى فيما يحفظ ، ويمتاز بصدق ما يستخرج من أحكام الفقه وأجوبة المسائل . حضر قوم من المشتغلين بجمع الحديث مجلس الفقيه الكبير أبى عاصم الضحاك ، فقال لهم : ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم ، فقالوا : فينا شاب فقيه سيجىء الساعة ، وكانوا يعنون أحمد بن حنبل . فلما حضر قال له أبو عاصم : تقدم . . . فقال : أكره أن أتخطى الناس[1] ؛ فقال أبو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه ... أوسعوا له . فأوسعوا ، فدخل حتى جلس بين يديه ، فألقى إليه مسألة فأجاب ، وألقى ثانية فأجاب ، وثالثة فأجاب ، ومسائل فأجاب ، فقال أبو عاصم : هذا من دواب البحر — يقصد أنه عجيبة من عجائب العلم .

---

(١) ورد فى سنة رسول الله كراهة تخطى رقاب الناس فى المسجد ومجالس العلم .

وإنك لا تخطىء فى هذا الفقه خصائص الإمام ابن حنبل ، ونهجه فى ملازمة السنة والأخذ من آثار الصحابة رضى الله عنهم . قال إبراهيم بن هانىء : اختفى عندى أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لى موضعاً حتى أتحول إليه . قلت : لا آمن عليك يا أبا عبد الله . قال : إذا فعلت أفدتك فائدة من العلم . فطلبت له موضعا ، فلما خرج قال لى : اختفى رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول ، وليس ينبغى أن نتبع رسول الله ﷺ فى الرخاء ، ونترك متابعته فى الشدة . . . ولقد صلى يوم محنته والدم يسيل من مواضع ضرب السياط ، فأنكر عليه بعضهم ذلك ولفته إليه ، فقال : لقد صلى عمر رضى الله عنه بالناس وهو مطعون ينزف منه الدم .

هذا هو مذهبه فى العلم والفقه ، ولذا كان يرى من ضيعة العلم ، وسقوط منزلة المرء أن يسعى لتلقى أقوال الرجال فى الفروع والمسائل ، وينصرف عن سوق السنة وهى رائجة . قال موسى ابن حزام : كنت أختلف إلى أبى سليمان الجرجانى لأتلقى عنه كتب محمد بن الحسن فى فقه أبى حنيفة ، فاستقبلنى أحمد بن حنبل عند الجسر ، فقال لى : إلى أين ؟ قلت : إلى أبى سليمان . فقال : العجب منكم ، تركتم ثلاثة يبلغون بكم النبى ﷺ ، وأقبلتم على ثلاثة يبلغون بكم أبا حنيفة ! فقلت : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : يزيد بن هارون

يحدث الناس بواسط فيقول : حدثنا حميد عن أنس عن رسول الله ﷺ ، وصاحبك أبو سليمان يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبي حنيفة ! قال موسى بن حزام : فوقع فى قلبى قوله ، فاكتريت زورقاً من ساعتى ، فانحدرت إلى واسط فسمعت من يزيد بن هارون . وقال عبد بن حميد : كنا فى مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذ شاب إلا أنه المنظور إليه من بينهم ، فجاء رجل من بلخ فدنا من أبى عبد الله فسأله شيئاً فأجابه . فقلب الشيخ عليه الكلام ذاهباً مذهب المعاظلين فى الفروع والآخذين بالرأى — قال وكان أحمد قليل الكلام — فلم يرد عليه إلا أنه أشار بيده اليمنى هكذا : أى تنح عنى ، ففطن بعض أصحابه إلى أنه سأله عما لا يعنيه . ثم قال أحمد للرجل : يا هذا ، إنما مجلسنا مجلس مذاكرة حديث رسول الله ﷺ ، وحديث أصحابه ، فأما الذى تريد أنت ، فاقصد له مجلس ابن أبى دؤاد .

وفى سبيل تحصيل سنة رسول الله ﷺ ، رحل من بغداد ماشياً إلى صنعاء ليسمع الحديث من عبد الرزاق محدث اليمن الكبير ، فمكث بها قرابة عامين ، وعاد منها إلى مكة مجهداً بما لقى من خشونة العيش ومشقة الحرمان ، قال أحمد بن إبراهيم الدورقى : لما قدم ابن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً ، وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، لقد شققت على نفسك

فى خروجك إلى عبد الرزاق ، فقال : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ! كتبنا عنه حديث الزهرى عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة .

بهذا الحب لسنة رسول الله ﷺ ، والحرص على تلقيها ، والورع فى تحرير متونها ، وشدة التثبت من حال رواتها علا شأنه ، ورسخت قدمه ، وسار ذكره ؛ حتى قدَّمهُ العلماء ، وأقر له الأئمة بجلالة القــدر ، فقال له الامام الشافعى رضى الله عنه يوماً : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ؛ فإذا كان خبر صحيح فأخبرنى به حتى أتحول إليه . . . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : فإذا وجدت الشافعى يقول فى كتابه : حدثنى الثقة ، أو أخبرنى الثقة فهو أبى رحمه الله .

نعم ، لقد أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الورع والخشونة التى قدرت له ، حتى قال يحى بن معين كلمته التى فى صدر هذا الحديث . وقد حاولنا فى الصفحات الماضية أن نصور ورعه وحرصه الشديد على ملازمة سنة رسول الله ﷺ فقلنا : « وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدقُّ من الحبل ، وتحته هوة سحيقة مهلكة ، كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه ، وجدّه فى الاستمساك به ، وحذره أن يميل يمنة أو يسرة ، وخوفه أن يسقط إلى الهلاك الفاغر فاه تحت

قدميه ، فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر الثابت من سنة رسول الله ﷺ فى ورع وجد ووقار ، حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته »

ومذهبه الناصع الواضح الذى بناه على تلك المتابعة معروف للناس ، مستفيض ذكره فيهم ، وما زال كثير ممن يرضى لدينه نصاعة الحجة وسلامة البرهان يتبع ذلك المذهب إلى اليوم فى ثقة وطمأنينة .

ولكننا اليوم لسنا بصدد مذهبه فى الفقه والأحكام ؛ وإنما بصدد مذهبه فى الورع العميق ، وتجريد معيشته من كل شبهة ، بل من ظل أى شبهة تغض من نصاعة الحلال فى رزقه ، وصبره على ذلك صبراً أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره حتى لم يجدوا حرجاً أن يقولوا « والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد » .

كان يملك من دنياه داراً يسكن بعضها هو وأهله وبنوه ، ويؤجر سائرها فلا يكاد الايجار يفى بمطالب الكفاف من معيشته .

والكفاف فى المعيشة أمر اعتبارى يختلف مستواه لدى الأفراد باختلاف ما تطيقه نفس كل منهم من الصبر على الخشونة وضيق العيش وقلة الموجود ؛ ولقد كان كفاف بعض الأئمة يعتبر من أوسع السعة إذا قيس بالكفاف الذى صبر عليه إمامنا الجليل رضى الله عنه ؛ فلقد روى ابنه عبد الله فيما روى من أخبار أبيه

بعد المحنة أنه أدخل دار المعتز وفى قدميه خف « قد أتى عليه له عنده نحو من خمس عشرة سنة مرقوعاً برقاع عدة » .

ولقد حج رضى الله عنه حجتين راكباً ، فكم تقدر له من نفقة فى كل حجة ؟ كم تقدر لشخص يحج من بغداد عاصمة العراق إلى الحجاز ثم يعود لوطنه فيما يتراوح بين أربعة وستة أشهر . . . ؟ لقد حدّث ابنه عبد الله أنه أنفق فى إحدى هاتين الحجتين عشرين درهما لا غير ! فإذا رأيت فى ذلك مستوى من الكفاف لا تكاد تطيقه نفس ، فاعلم أنه مستوى يصور لك بعض السعة فى حاله ، أما حقيقة مستواه فتصوره حجاته الأخرى ، إذ لم يجد فى سعته نفقة الركوب فحج خمس حجات ماشياً وهو إمام جليل يشار إليه بالبنان .

ولقد شرّق ذكره وغرب ، وأقبل عليه وجوه الناس ، ورغبوا فى صلته بأنواع البر والهدايا ومنح المال ، فما ترخص فى ورعه وما أدخل على زهده منّـةً لمخلوق قط ، فعاش كما قلنا طوداً سامقاً تغيب فى زرقة السماء كواهله الرفيعة قبل أن تصل العيون إلى غاية ذراه .

كان يتردد عليه شاب من الصيارفة فناوله يوماً درهمين ليشترى له بها كاغداً ، فاشتراه الشاب ووضع له فى جوف الكاغد خمسمائة دينار ، وشده وأوصله إلى البيت ، فلما رجع الامام سأل

عن الكاغد فدفعه إليه أهله فما إن فتحه حتى تناثرت الدنانير، فردها إلى مكانها منه ومضى إلى الشاب فوضعها بين يديه، فتبعه الفتى وهو يقول: الكاغد اشتريته بدراهمك، فخذه دون الدنانير، فأبى أن يأخذ الكاغد أيضاً ! !.

ولقد وجه إليه صديقه الحسن بن عبد العزيز ثلاثة آلاف دينار، قائلا له مع الرسول: يا أبا عبد الله هذه من ميراث حلال من مائة ألف جاءتنى من مصر، فخذها واستعن بها على عيلتك، فأبى.. فألح عليه الرسول — وهو أخو الحسن — فلم يقبل. فقال الرسول فى نفسه: لعلى لو أخبرته أنها ثلاثة آلاف قبلها، فقال له: يا أبا عبد الله إنها ثلاثة آلاف، فلما سمعها قام وتركنى.

وأرسل إليه أحد الصلحاء الأخفياء رسالة — لم يذكر فيها اسمه — مع رجل صالح يرجوه فيها أن يقبل أربعة آلاف «لتقضى بها دينك وتوسع بها على عيالك» قال ابنه صالح: «وكنا فى أيام الواثق، والله يعلم فى أى حالة من الضيق نحن، فدخلت مكان أبى — وكان خرج لصلاة العصر — وقد كان يجلس على لبد قد أتت عليه سنون كثيرة حتى بلى، فرفعت اللبد فوجدت كتاب الرجل الصالح... قال فلما عاد أبى سألته عن هذا الكتاب فاحمر وجهه وقال لقد أخفيته منك... ثم قال له «تذهب بجوابه إلى الرجل الذى جاءنا الكتاب على يده» فحملت الجواب وفيه: «أما بعد

وصل كتابك إلىّ ونحن فى عافية ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم فى نعمة والحمد لله » فقال لى الرجل « ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشىء ورمى به — مثلا — فى دجلة كان مأجوراً لأن هذا الرجل ممن يسترون معروفهم فلا يدرى به أحد » . . . قال صالح : فلما مضت سنة ذكرنا ذلك فقال أبى : لو كنا قبلناها لما كان معنا الآن منها شىء إلا منّـة الناس علينا ! !

ولم يكن ذلك فى تلك الأيام الناضرة مما يغض من قدر أحد لو أخذ ، فهو مما يتقرب به الناس إلى الله لمن فرغوا نفوسهم لبيان التدين وتوضيح مناهجه وطرائقه ، وإن ما يدفعه الأغنياء من ذلك لقليل بجانب ما يبذله العلماء من عصارة القلب وأشعة الذهن . . . ولـكن إمامنا الجليل رضى الله عنه رأى ضيق الدنيا ليس بضيق ، ومحنة المرء فى عيشه ليست بمحنة إذا سلم له يقينه ، ورأى نعمة الله عليه أجل من أن تزاحمها فى الشكر نعمة لآخر كائناً ما كان ، فلم تمتد منه نظرة واحدة إلى ما عند سواه .

ولقد كان تراحم الأئمة أن يصل أولو الفضل منهم والسعة من كان منهم فى ضيق وشدة ، ولقد كان لإمامنا الليث رضى الله عنه سنن مأثور من ذلك ، إذ كان لا يقطع بره عمن يعرف من أكابر الأئمة وأهل العلم ، وكان هؤلاء رضوان الله عليهم — وفيهم الإمام مالك — لا يرون بأساً فى قبول ما يصلهم به أخوهم ، ولـكن أحمد

رضى الله عنه آثر لنفسه نهجاً آخر حدث عنه فقال : « عرض علي يزيد بن هرون — المحدث الجليل بواسط وكان من المياسير — خمسمائة درهم فلم أقبل منه ، وأعطى يحي بن معين وغيره فقبلوا منه » .

ولقد كان الخلفاء يرون أن يعينوا فقراء الأئمة ورجال الحديث من بيت المال ، وكان لا حرج على أحدهم أن يأخذ ، فهو مما ينفق فى سبيل الله ويعين على التفرغ لأقدس واجب ، ولكن إمامنا الفذ لم يرض لنفسه أن يمد يده ! ! قال إسحاق بن موسى الأنصارى : دفع إلىّ المأمون مالا أقسمه على أصحاب الحديث ، فإن فيهم ضعفاء ؛ فما بقى منهم أحد لم يأخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى » .

قال له ابنه صالح : يا أبت ، إن أحمد الدورقى أخذ ألف دينار ، فقال « يابنى ، ورزق ربك خير وأبقى » . . . وذكر عنده رجل فقال « يا بنى الفائز من فاز غداً ولم يكن لأحد عنده تبعة » .

ولم يكن الإمام يذوق — مع هذا الفقر — كرباً تضيق به نفسه ، وتظلم معه الدنيا فى عينيه ، بل كان يجد فى ضيق العيش أوسع السعة ، وفى ظلام الكربة آفاقاً من الضياء والرضاء ، قال ابنه عبد الله : ذكر الفقر عند أبى فسمعته يقول « الفقر مع الخير » .

وهذا كلام جليل لا يصف خاطراً مر بالنفس ، أو طيفاً ألم بخيال صاحبه ، بل يصف حقيقة مستعلنة فى سريرته ، ومواجيد يذوق طعومها فى خفية نفسه . . .

والناس ضربان : ضرب يعيش فى عيشه ، وآخر يحيا فى حقيقة نفسه . . . فالأولون هم الذين يذوقون مسراتهم أو يلعقونها من خلال ما بأيديهم من رزق قليل أو كثير ، فإذا لذّه المرعى قال : ربى أكرمن . وإذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه قال : رب أهانن ، فوجوده وجود الرغيف والقميص ، وجذوره لا تتصل فى الحياة بغير هذين . . . وأما الآخرون فهم الذين انتقلت أذواقهم من المحيط الظاهر التافه إلى معين الحق القوى الجميل ، وامتدت مشاعرهم إلى ضمير هذا الكون ، فاستروحوا بقدس الله فرحاً بغير مال ، وأنساً بغير أهل ، وجاهاً بغير منصب ، وسعادة بغير مصدر محسوس ؛ فإذا ذكر فضل الله فحدث ما شئت عن نشوة الطرب ، وإذا ذكرت الدنيا فقد ذكرت السلعة المزجاة ، والعرض الكاسد المردود . وذلك هو الذى عرفه الناس من حال أحمد وتكلموا به ؛ قال أبو داود السجستانى : لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ؛ لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذكر العلم تكلم » .

ولعل أحداً أن يقول لنا : وأين الصبر الذى ادعيتموه لأحمد ، وزعمتم أنه متجدد الطاقة لا ينفد له مدد ؟ . . . ونقول : إن هذا الذى نصف هو الصبر ؛ وليس للصبر معنى تتماسك به النفس فى كل موقف من مواقف المحنة أو النعمة ، فإذا بها تؤدى للحق فى كل موقف ما يجب عليها له .

أو هو روح من أمر الله يمسك المرء أن ينساق مع مشاعر الحياة الدنيا ، فلا يعبث به الأسى على فائت ، ولا يستخفه الفرح بما يذوق من نعماء ، ويجعله أكبر من كل ما يعتريه من فتن العيش ، فإذا كان فى محنة رأى نفسه فلم ير فيها إلا أنها فرصة من فرص التطهر والتطور إلى ما هو أحسن . وإذا كان فى سعة لم تخرجه السعة عن طوره لأن ما يرد على قلبه من سعة فضل الله أعز وأهنأ ، وذلك من أصدق ما قرره القرآن الكريم من خصائص أهل الصبر ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين (صبروا) وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

ولقد استعلنت تلك الصفة فى نفس أحمد رضى الله عنه إلى جانب ما استعلن من صفات ؛ فكانت القوة التى غالب بها التيار وظهر بها على كل مشقة ، وبفضلها اجتاز كل محنة ، وخرج من كل شدة أصفى ما يكون معدناً على حد ما قال بشر بن الحارث « أدخلوا أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبة حمراء » .

فالصبر هو القوة الغالبة التى تطفو بصاحبها دائماً على كل حادث من محنة أو منحة ، فيصرِّف هو كل حادث ، ولا يدع لحادث أن يُصرِّفه ، لايلتفت قلبه لشىء من ذلك ، ولا يرى فى كل حال

إلا وجه الله جل ثناؤه . . . وتلك هى الصفة التى كان يعيش وجدان أحمد فوق بساطها .

ومن فوق بساط تلك الصفة كان أحمد رضى الله عنه يفرح بالفقر ، بل يفرح من خلو يده من عرض الحياة الدنيا ، قال ابنه صالح ، قال لى أبى يوماً : « يا بنى ، إذا أنا لم يكن عندى قطعة أفرح » . . . وهو تعبير دقيق يلم بمعنى أصيل ؛ فأرباب القلوب حين ينصرفون عن المال لاينصرفون عنه فحسب ، بل ينصرفون إلى ما هو أربح وأوفر مغنما ، فلهم فى وجه الله ثقة تعظم وتستفيض كلما خلت أيديهم من عرض هذا الأدنى ، فيجدون لها روعة وحلاوة وثباتاً إذا صاروا من فضل الله وكلاءته وجهاً لوجه ، ولله معهم — حينئذ — من تصاريف اليسر ما يضحك سرائرهم ، فلا يدرى أحدهم أيضحك لما ذكره الله به من يسر ، أم لأن اليسر ورد عليه من باب لم يرد بحسبانه ولم يخطر له على بال ؟ . . . إن أرباب هذه الحقائق يشعرون فى قرارة نفوسهم أن فضل الله يحجب عن قلوبهم بالقليل الذى فى أيديهم ؛ فإذا زال ذلك القليل تفتحت مصاريع القلوب ، وأقبل فضله سبحانه على سعته ، فغمرها ثقة لا حد لها ، ثباتاً لا يجده أقوى الناس بماله ، فإذا قال أحمد : إن الفقر مع الخير ، وإن الفرح يأتيه كلما خلت يده من المال ؛ فهما قولان ينبعان من مشكاة واحدة ويتظاهران على تأييد معنى

واحد : هو حياة المرء فى حقيقة نفسه . لا فى تفاهة القشرة الظاهرة من عرض هذه الحياة الدنيا .

* * *

ومن خلال هذه الحقيقة تشبث أحمد بالحلال ، ووجوب السعى فى طلبه ، وتجريده من كل شبهة ، وذهب فى ذلك إلى أبعد مدى يمكن تصوره ، ولم يجد ما يصفه لكسب طمأنينة القلب وسلامة النفس إلا كسب الحلال على النحو الذى يدركه هو ويسطع معناه فى يقينه . قال عمر بن صالح الطرسوسى : سألت أحمد بن حنبل بم تلين القلوب ؟ . . . فنظر إلى أصحابه — وكأن السؤال أعجبه — فغمزهم بعينه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يا بنى ، بأكل الحلال ، فقال : فمررت ببشر بن الحارث فسألته : بم تلين القلوب ؟ فقال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . فقلت له : لقد جئت الآن من عند أبى عبد الله ، فقال : هيه . . . إيش قال لك أبو عبد الله ؟ قلت قال : بأكل الحلال . فقال « جاء بالأصل » . . . فمررت بعبد الوهاب بن أبى الحسن فسألته : بم تلين القلوب ؟ قال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قلت فإنى جئت من عند أبى عبد الله . فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لى : إيش قال لك أبو عبد الله ؟ فقلت قال : بأكل الحلال . فقال جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال !.

أما تصوره لصفاء الحلال وتحريه أن يكون عيشه كما فهم وتصور، فيطالعنا من أكثر حالاته وتصرفه مع الناس. وقع منه مرة مقراض فى بئر، فجاء أحد ساكنى داره فأخرجه، فناوله أحمد نصف درهم، فقال الرجل: المقراض لايساوى إلا قيراطاً فكيف آخذ على إخراجه ستة قراريط (نصف درهم)؟ لا آخذ شيئاً؛ ولكن هل سكت أحمد على ذلك؟ هل رضى لكسبه أن يدخل عليه ذلك النوع من الاستغلال... لقد انصرف الرجل وهو يعتبر أن المسألة منتهية، إذ لا تستحق فى تقديره أن يقيم لها أى وزن؛ بل لعله كان يعتقد أن من البركة أن وفقه الله لأن يقضى للإمام هذه الحاجة اليسيرة. أما أحمد فلم ينصرف من المسألة، ولم ينته منها كما انتهى الرجل، فظل يفكر، فلما كان بعد أيام قال له: كم كراء حانوتك فى الشهر؟ قال: ثلاثة دراهم... قال: كم شهراً عليك من الكراء؟ قال ثلاثة أشهر، فضرب أحمد على حساب الرجل وقال له قد وضعت عنك دينك، وأحللتك مما عليك... وبذلك أزاح أحمد عن قلبه تلك الشبهة التى أقلقت باله أياماً.

ولقد كان فى سفرة، فنفدت النفقة من أصحابه، فعُرض المال عليهم فأخذوا، أما هو فعَرضَ فروة له وقال: من يبيع هذه ويجيئنى بثمنها فأتسع به؟ قال حمدان الواسطى: فأخذت صرة دراهم فمضيت بها إليه ثمناً للفروة، ولكن أحمد لم يقبل أن يكون فى ثمن

فروته ظل لصدقة ، فرفض الصرة . . . فعاد الرجل بالفروة ، فقالت له امرأته : إنه لم يرضها ، وهو رجل صالح فأعطه ضعفها ، فأضعفها له ، فلما رأى أحمد إلحاح الرجل فى بذل المعروف ثمناً للفروة جذبها منه وخرج . ولعل الصبر على الفقر وعلى طلب الحلال يطالعنا مجلواً ساطعاً من خلال هذين الحادثين أروع وأجلى ما يكون .

لم يكن العلم يومئذ يقاس لدى القوم والناس بالشهادات ، والألقاب ، بل بالسياحة فى بلاد الله والرحلة إلى مختلف الأقطار النائية للقاء الرجال والسماع منهم والتلقى عنهم وأخذ ما عندهم ، ولم يكن يدخل فى عداد أهل العلم من لم يلق العشرات من شيوخه ولم يرحل فى طلبه إلى الأمصار المختلفة . . . ورحل أحمد رضى الله عنه ليلقى أئمة الحديث والأخبار الصحاح ، رحل ماشياً إلى طرسوس بأعلى بلاد الشام ، ورحل إلى اليمن ليلقى بها محدثها الكبير عبد الرزاق ماشياً . وليس صبره على المشى بغريب عليك . فقد علمت مما سبق أنه حج خمس مرات ماشياً ، ولكن الذى نريد ذكره فى رحلته لعبد الرزاق أن نفقته انقطعت فى الطريق ، فعرض عليه أصحابه المساواة فلم يقبل من أحد شيئاً ، وأكرى نفسه جمالا مع الجمالين ليأكل مما يخدم به القافلة ، فإذا كنت لا تملك نفسك من إجلال ذلك الإمام الراحل ماشياً فى طلب العلم فلا يفوتنك ملاحظة الصفاء الذى سما إلى مستواه فى كسب الحلال .

قال عبد الرزاق : قدم علينا أحمد بن حنبل ، فأقام سنتين إلا شيئاً ، فقلت له : يا أبا عبد الله خذ هذه الدنانير فانتفع بها فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب . فقال : أنا بخير . . . ولم يقبل منى ! .

وقال سليمان الواسطى : بلغنى أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه حين أراد الخروج من اليمن ، فلما خرج وليس معه شىء عرض نفسه على الجمالين ليكرى نفسه منهم فى خدمة القافلة ، فلقى من المشقة فى خدمته ومشيه مالا بد أن يلحق مثله فى سنه . قال أحمد بن إبراهيم الدورقى : لما قدم أحمد بن حنبل علينا مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، شققت على نفسك فى خروجك إلى عبد الرزاق ! فقال : ما أهون المشقة فى جنب ما استفدنا من عبد الرزاق ! ! .

وإنى أدع لك أن تتصور الجلالة التى يجب أن يضفيها على أحمد بن حنبل هذا المنهج الرائع من الورع والتقى والصبر على المشقة فى سبيل الله ، والدقة فى تحرى الحلال والاستبراء لعيشه من كل شبهة . . . إنها جلالة سمت به حتى فاق كل أقرانه ، وغرست هيبته فى كل نفس حتى سعى الجميع إليه بالتكرمة والمودة . لما نزل القوم صنعاء — وفيهم أحمد — نزلوها ليلا ، فألفوا عبد الرزاق جالساً

فى موضع ، فجلسوا إليه ، ولم يكن من عادة العلماء يومئذ أن يحدثوا من محفوظهم شيئاً إلا والمرجع معهم ، ولم يكن المرجع ساعتئذ مع عبد الرزاق ، ولكنه أراد أن يحسن لقاء أحمد بتحية طيبة فأملى على القوم سبعين حديثاً من حفظه . . . قال أحمد بن حنبل : ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئاً إلا المجلس الأول ؛ وذلك أنا دخلنا عليه بالليل فأملى علينا سبعين حديثاً ، ثم التفت إلى القوم وقال : لولا هذا — وأشار إلىّ — ما حدثتكم ! ! .

ولقد أرسل إليه أحد الخلفاء صلة من المال ، فامتنع وردّها رداً حسناً . . . ولقد يكون فى ذلك نوع من الورع والترفع وتحرى الحلال . ولكن ستعود إلى التحليق فى آفاق الإمام العليا حين تعلم أن عمه وابنه صالحاً ، قبلا تلك الصلة ، بدون علمه ، تحت ضغط الفقر ومطالب العيال . فلما علم رضى الله عنه ، هجرهما ورعاً وتأثراً ، وأمر بجدار فصل بينه وبين ابنه صالح ، وامتنع من الصلاة خلف عمه . . . ولم يكن عندهم دقيق — فى يوم من الأيام — فاستسلف دقيقاً وأمر بعجنه وخبزه ، فقدم إليه بعد قليل مخبوزاً ساخناً ، فعجب لتلك السرعة ، فأخبروه أن فرن دار ابنه صالح مسجور للخبز ، وأنهم خبزوه فى ذلك الفرن ، فلما سمع ذلك كف عن الطعام وأمر برفعه تحرجاً وتوقياً من الشبهة ، لأن ابنه أكل من جوائز الخلفاء ! ! .

يا أخى ، إذا لم يكن لمثل هذا الإمام الجليل المراتب السنية عند الله ، والمنازل الرفيعة ، فلمن تكون ؟ وإذا لم يكرمه الله بقبول دعائه إذا دعا لمريض أو مسكين فلمن يستجيب الدعاء ويجرى الكرامة ؟ قال رجل من أهل بغداد : كانت أمى مريضة مقعدة زمنة ، فقالت لى يوماً : إذهب إلى أحمد بن حنبل فاسأله أن يدعو الله لى ، فسرت إليه ، فدققت عليه الباب وهو فى دهليزه فلم يفتح ، وقال : من هذا ؟ فقلت : أنا رجل من أهل ذاك الجانب سألتنى أمى وهى زمنة مقعدة أن تدعو لها الله . فسمعت كلامه كلام رجل مغضب : نحن أحوج إلى أن تدعو هى الله لنا ! ! فوليت منصرفاً ، فخرجت امرأة عجوز من داره فقالت : أنت الذى كلمت أبا عبد الله ؟ قلت : نعم.. قالت : قد تركته يدعو الله لها . قال : فجئت من فورى إلى البيت فدققت الباب فخرجت أمى على رجليها تمشى حتى فتحت الباب . فقالت : قد وهب الله لى العافية .

واجتمع المجلس يوماً فى دار يحي بن معين ، فقال يحي فيما قال : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ؛ صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشىء ، مما كان فيه من الصلاح والورع والخير ! ! فقال قتيبة ابن سعيد : ومن مثل أحمد ؟ والله لولا أحمد بن حنبل لمات الورع . فقال مصعب الزبيرى : ومن فى ورع أحمد وعبادة أحمد ؟ يترفع على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر ، ويكرى نفسه مع الجمالين

حتى يظن أنه الذل ، ويقطع نفسه عن مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أنساً بالوحدة فلا يراه الرائى إلا فى مسجد ، أو عيادة مريض أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه بعض ما قضينا لنفوسنا من شهوات . قال يحى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد ! ! فقال رجل فى المجلس : بعض هذا الثناء يا قوم ، فإن الرجل ليس بالمكان الذى تقولون . . . فقال الحسين الكرابيسى : مثل الذين يغضون من قدر أحمد مثل الذين يحاولون هدم جبل أبى قبيس بأكفهم ! ! فقال الرجل ﴿ يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ﴾ . فتغير يحي بن معين وصاح فى الرجل : أتزعم أن الثناء على أبى عبد الله غلو فى الدين ؟ يا هذا إن الثناء على أبى عبد الله من أطيب مجالس الذكر ! ! .

توافد جماعة المعتزلة — وعلى رأسهم أحمد بن أبى دؤاد — إلى قصر الخلافة بسامرا ، حيث اتخذوا مجالسهم فى مجلس الخليفة المعتصم . وجلس فى صدر المجلس يحف به كبار القواد من خراسان وقوفاً على رأسه ، وكان مطرقاً تبدو عليه أمارات القلق والهم ، ثم رفع رأسه بعد برهة ونظر إلى أحمد بن أبى دؤاد وهو يقول :

هيه يا ابن أبى دؤاد : أما زلت مصراً على رأيك فى محنة هذا الرجل ؟ .

فقال ابن أبى دؤاد – وقد أفزعه ما رأى على وجه الخليفة وما سمع من كلامه الذى ينم عن رغبته فى ترك أحمد بن حنبل بدون محنة – : إنه ضال مضل مبتدع ، وإن ضلالته تلقى رواجاً بين العامة . . . ثم سكت قليـلا وقال : وماذا تقول لابن عمك رسول الله ﷺ إذا قال لك يوم القيامة يعاتبك : تركت أحمد ابن حنبل يلبس على الناس دين الله الذى تركته نقياً صافياً ، ويدخل الزيغ على عقائدهم ويعلمهم أن الله يتكلم بجارحتين غير منزه عن التشبيه والتجسيد .

فقال أحد الجالسين من كبار المعتزلة : يا أمير المؤمنين ، إن هذا كفر بواح ، وإن هذا الرجل يذيعه فى الناس ! وقد أقامك الله فينا لترعى هذه الأمانة التى جاهد ابن عمك رسول الله فى تقريرها . . . وهل بعث ابن عمك ﷺ إلا لينفى عن الله التشبيه والتجسيد ؟ اقتله يا أمير المؤمنين ودمه فى رقابنا ! .

قال المعتصم : وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملئوا الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم يقولون إن أحمد بن حنبل يفتن اليوم ، وقد علموا أننا أحضرناه من سجنه ببغداد إلى هنا .

فقال المعتزلى : ومتى كان عوام الناس يا أمير المؤمنين حكما فيما لا يفهمون ؟ إن هذا أدعى إلى أن تعاجله قبل أن يستفحل أمره !

فقال معتزلى آخر : وما عليك أن تقتله يا أمير المؤمنين وقد كان أخوك المأمون أحضره من بغداد إلى طرسوس ليقتله على هذا الكفر ! .

فقال ثالث : نعم يا أمير المؤمنين ، فلو مد الله فى عمر الخليفة المأمون أياماً قليلة لقتله ، ولكنه مات قبل أن يصل هذا الضال المضل إلى عسكره .

قال المعتصم : نعم ، وقد أوصانى أمير المؤمنين المأمون أن أقمع رجال البدعة ولا سيما هذا الرجل ، فهو ذو حظ فى الناس ومنزلة كبيرة لدى عوامهم . ولكنى أخشى الفساد ، والناس اليوم فى هرج ومرج كأنما استعدوا للفتنة والهياج .

فقال أحد المعتزلة : إن العوام لايخشى بأسهم إلا إذا كان زمامهم بيد رجل يدبر أمرهم ويجمع شملهم . . . وأنت يا أمير المؤمنين قد أمكنك الله من هذا الرجل وهو فى سجنك تحت حراسة الحفظة من رجالك لم يتصل بالناس ولم يتصل الناس به منذ ثمانية وعشرين شهراً .

قال المعتصم ، وكأنما راعه طول المدة : منذ ثمانية وعشرين شهراً ؟ ما أسرع ما تمر الأيام ! .

قال المعتزلى : أهى كثيرة يا أمير المؤمنين ؟ إنه لو أمضى ثمانية وعشرين عاماً لكان ذلك دون ما يستحق . . . !

إن أحداً لن ينسى له سوء أدبه يوم جاء كتاب أمير المؤمنين المأمون إلى والى بغداد إسحاق بن إبراهيم . (فنظر المعتصم كأنه يستوضح المعتزلى ما يقول) فانطلق المعتزلى يقول : نعم ، كان أمير المؤمنين فى جيشه خارج طرسوس يغزو فى سبيل الله ، فى حين كان هذا الرجل وأمثاله من شيوخ البدعة ينشرون ضلالهم فى الناس ، فلم يشغل أمير المؤمنين ما هو فيه من الجهاد عما يعمل هؤلاء القاعدون المفسدون ، فأرسل بكتبه إلى وإلى بغداد إسحاق ابن إبراهيم كتاباً فى إثر كتاب يطلب إليه أن يدعو رؤوس التشبيه والتلبيس ويعرض عليهم أن يجيبوه إلى العقيدة الصالحة ؛ فكلهم أجاب أمير المؤمنين وأقروا على ملأ من الناس بأن القرآن مخلوق إلا هذا العنيد . فإن شؤمه لم يرض له بالكفر حتى أضاف إليه سوء الأدب مع إمامه . فلما علم بذلك أمير المؤمنين أمر بأن يوجه إليه بطرسوس . فلما كان على مرحلة من العسكر توفى أمير المؤمنين قبل أن يجتمع به ، ولو اجتمع به لقتله ، فأعيد هذا الضال إلى بغداد حيث أبقاه الوالى فى سجنها إلى الآن . . . فلو أنه مكث فى سجنه ثمانية وعشرين عاماً لا ثمانية وعشرين شهراً لكانت قليلة فى سوء أدبه مع إمامه ، فكيف بسوء أدبه مع الله ؟ .

فقال معتزلى آخر : نعم يا أمير المؤمنين ، وبلغ من سوء أدبه أن وصف خليفة الله المأمون بالفاجر ، فإنه حين أحضر إلى طرسوس ولم يبق بينه وبين جيش الإمام إلا مرحلة ، جاء أحد

الخدم فقال : « إن أمير المؤمنين سلَّ سيفاً لم يسله قبل ذلك . وإنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ ، لئن لم تجبه إلى خلق القرآن ليقتلنك بهذا السيف . فما أن سمع هذا حتى جثا على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال : « سيدى : غرَّ هذا الفاجرَ حلمك حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم إن كان هذا القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤونته ! » .

قال المعتصم : لقد بلغنى ذلك وعلمت أن الناس يتحدثون بها فى الأسواق ويقولون : إن أحمد بن حنبل دعا بها فى أول الليل ، فما جاء الثلث الأخير حتى أتاه من بشره بأن أمير المؤمنين قد مات ، ويعتبرون ذلك من كرامة أحمد بن حنبل على الله .

فقال المعتزلى : وهذا يا أمير المؤمنين من الشواهد الناطقة بسذاجة العوام وعدم تمحيصهم ، وسرعة تلقيهم الجهل والخرافة بالقبول والتأييد . . . إنهم يعتبرون أن المأمون لم يمت إلا لأن الله أجاب فيه دعوة أحمد . . . ويقولون : دعا عليه فى أول الليل فلم يأت آخره حتى جاء نبأ وفاته . مع أننا كنا معك وهو يسلم روحه الطاهرة لله قبيل العصر أو بعده بقليل ، أى أن أمير المؤمنين المأمون رضى الله عنه مات قبل أن يدعو أحمد دعوته الرائجة الشائعه . ولكن جهل العوام سوَّلَ لهم أن يتخذوا من ذلك كرامة تنبىء عن مكانته عند الله سبحانه ، وحاشا لله أن يكون لمثل هذا الضال عنده منزلة غير منزلة أهل الضلالة والبدعة والكفر .

قال المعتصم : إنهم يقولون إن الله ألهمه الدعاء بعد موت المأمون ، فدعا به ، فأتاه الخبر بما دعا ليكون ذلك له تأييداً وتثبيتاً ، فالكرامة فى أن الله سبحانه ألهمه الدعاء لا فى أنه أمات المأمون استجابة له . فقال المعتزلى : إن عقول العوام يا أمير المؤمنين لا تطيق مثل هذا ولا تعيه . على أنه كلام يدسّه رؤوس البدعة ويعملون على ترويجه فى سواد الناس سعياً إلى الفتنة .

قال المعتصم : كأن هناك إذن من يقوم على رأس الناس ويجمعهم على الفتنة وقد قلتم لى : إنه ليس هنالك من يجمعهم غير هذا الرجل الذى لم يتصل بهم منذ ثمانية وعشرين شهراً !

فقال المعتزلى : يا أمير المؤمنين ، إنه لا يروج مثل هذا الكلام إلا جماعة لا خطر لهم . . . إنهم فريق ممن دعاهم أمير المؤمنين المأمون إلى القول بخلق القرآن فأجابوا ظاهراً وظلوا على كفرهم وبدعتهم باطناً . . . وقد سقطت منزلتهم عند جمهور الناس لما أجابوا ولم يعد لهم عندهم قدر فلا يستطيعون أن يتصلوا بهم ولا أن يظهروا لهم .

فقال معتزلى آخر : رعا الله أمير المؤمنين ! إن ملكه أثبت من أن تؤثر فيه هيجة الغوغاء ، ولقد علمنا والله أن هذا الرجل سيق من بغداد إلى طرسوس مثقلا بأغلال الحديد ، محمولا على جمل مهين فى حالة زرية على أعين الناس ، فما أجترأ أحد على

اختطافه أو حل وثاقه أو الغضب له . ولقد قطع به حراسه الطريق من بغداد إلى طرسوس ، فلم يكن إلا أفراد من نوازع الناس وأفناء القبائل ، ينظرون إليه ولا يتكلمون ، ومن تكلم لايزيد على أن يقول له : « الثبات يا أحمد ! الجنة تنتظرك يا أحمد ! » وقد قال له أعرابى : « ياهذا ما عليك أن تقتل هنا وتدخل الجنة هاهنا ! » . ولقد حدثنى بعض حراسه أنهم نزلوا به فى بعض منازل الطريق فجاء رجل يقول : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : هاهو ذا ! فقال له : « ياهذا ، إن الله قد رضيك له وافداً ، فانظر لا يكون وفودك وفوداً مشؤوماً على المسلمين ! واعلم أن الناس إنما ينتظرونك أن تقول فيقولوا ! واعلم أنما هو الموت والجنة ! » فعوام الناس ياأمير المؤمنين لايوصون هذا الرجل أكثر من أن يمد رقبته للسيف ليدخل الجنة ، ومن كان هذا شأنهم فإن القوة والشغب على السلطان لن يخطر لهم ببال .

واطمأن المعتصم إلى هذا الكلام ، فاستمر المعتزلة فى إيغار صدره على أحمد بن حنبل ، فقال أحدهم :

وإذا كانت جماهير الغوغاء والرعاع بهذا الضعف فمن الخير أن يعجل أمير المؤمنين بامتحان هذا الرجل ، فإن أجاب بخلق القرآن أجاب الناس معه وكان ذلك أرسخ لملك أمير المؤمنين ، وإن أصر على ضلاله أنفذ فيه ما كان أمير المؤمنين المأمون يريد إنفاذه .

وقال معتزلى آخر : ولقد كان أمير المؤمنين لا يريد أن ينفذ فيه غير القتل ، دون أن يلقى بالا لسخف العامة ولغطهم ؛ وأنت يا أمير المؤمنين قد حباك الله بما حبا به المأمون من شدة البأس وجراءة النفس وشجاعة القلب والتمرس بفنون الحرب وألوان الفروسية ، حتى سارت بذكرك الأنباء ، فما من فارس إلا ويرى عزَّة فى الإقرار لك بالفروسية ، وما من بطل إلا ويراك إمامه المتقدم عليه . . . فإذا كان أمير المؤمنين المأمون قد أسقط هؤلاء العوام من حسابه ، فمولانا المتعصم بذلك أجدر ، وعليه أقدر . وإذا كان هؤلاء العوام لم يستطيعوا أن يمدوا لهذا الرجل يداً بمعونة فى زمن المأمون ، فهم عن ذلك فى عهد مولانا المعتصم أعجز ، وله أهيب ! .

وقال آخر : وما حسن يا أمير المؤمنين أن تملى لهذا الرجل ، فإنه لا يزداد مع الأيام إلا غياً وسوء أدب . . . ! لقد غره حلم أخيك المأمون حتى اجترأ عليه وقال عنه إنه فاجر ، وهاهو ذا بعد أن مضى فى سجنك وفى قبضتك ثمانية وعشرين شهراً يحكم على رسلك الذين ترسلهم إليه فى السجن بأنهم كفرة ، ويوشك — لو أمليت له — أن يرفع عقيرته بكفر أمير المؤمنين .

فتجهم وجه المعتصم ، ونظر إلى الرجل كأنه يستزيده بيان ما يقول ، فقال المعتزلى : لقد ذهب إلى مناظرته يا أمير المؤمنين

أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجاج لعله يرجع عن بدعته وكفره ، وتلطف إسحاق بن إبراهيم فأخرجه من السجن وجعل المناظرة فى داره بحضور رسول من قبله ، فلم يزده التلطف إلا إصراراً ، ولم تزده عناية أمير المؤمنين به إلا إمعاناً فى سوء أدبه ، فلم يكن من إسحاق بن إبراهيم إلا أن رده إلى السجن مقيداً بقيدين بعد أن كان مقيداً بقيد واحد .

وعرضت عليه الكرامة فى اليوم التالى ، وأخرج من سجنه فى قيديه الثقيلين إلى دار إسحاق حيث ناظره رسولا أمير المؤمنين فيما ناظراه به فى اليوم السابق ، ولكنه أصر على أن القرآن غير مخلوق . فأعاده إسحاق إلى السجن بقيد ثالث .

ثم اتيحت له الفرصة فى اليوم الثالث ليرى مبلغ حلم أمير المؤمنين ، فما كان لهذا الحلم من أثر إلا أنه قال لأحد الرسولين « يا كافر ، لقد كفرت ! » فإذا تركناه يا أمير المؤمنين على ما هو عليه فما يمنعه غداً من أن يقول هذا لمن هو أكبر من ذلك .

هذا إلى أن أنباء هذه المناظرات سرعان ما تتسرب إلى الخارج مبالغاً فيها ، فيعجب بها العامة وينسجون حول المبالغات مبالغات ، فيشتد الخطب وتعظم البلبلة .

قال المعتصم : وكيف ساغ لهذا الضال المبتدع أن يكفِّر رسلى ؟

قال المعتزلى : هذا دأبه فى سوء الأدب .

قال المعتصم : لقد أمرت بإحضار هذا الرجل من بغداد . فأين هو ؟ أدخلوه ! .

فدخل أحمد بن حنبل . . . شيخ أسمر اللون ، مديد القامة ، قد قوسه مر السنين وإلحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيراً على القدم . . . يجلله مشيب وقور ، ويسطع من وجهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به .

ونظر المعتصم يتفرس فى وجه القادم عليه ، فإذا طلعة الشيخ الجليل تروعه بما لم يجد له مثيلا فى حياته . . . لقد أحس كأن قلبه يتحول فى صدره من مكان إلى مكان . إن ابن أبى دؤاد على طول صحبته للخليفة ، وعلى غزارة علمه وبراعة منطقه لم يؤثر فى نفسه قط بمثل ما أثرت طلعة ذلك الشيخ الجليل الورع ! ! . وارتعشت نبرات صوت الإمام المريض الهزيل وهو يحي أمير المؤمنين : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وأحس المعتصم كأن نبرة الصوت الجليل المرتعش تملأ قلبه هيبة ، وتغسل من نفسه الموجدة ، فلم يتمالك أن قال للإمام : أدن .

فاستمر الإمام يدنو وهو يتعثر فى أقياده ، وكان قد ربطها فى تكة سرواله وأمسك التكة بيده يرفع بها ثقل الأقياد عن قدميه ، فلم يكن ذلك المنظر المهين الأليم مما يتلاءم مع الجلال البادى على الشيخ المهيب ؛ فرق له المعتصم وزاد تأثره ، وقال : أدن .

وما زال المعتصم يستدنيه حتى قال له :

— اجلس .

فجلس أحمد والقوم صامتون مأخوذون . فالتفت المعتصم إلى المعتزلة وقال : أليس قد زعمتم لى أنه شاب حدث السن ، وهذا شيخ مكتهل ؟ !

فسكت المعتزلة ولم يجيبوا بشىء .

فيسترد أحمد بن حنبل قوته . ويأنس بعض الشىء إلى إنصاف المعتصم فيقول : أتأذن لى ياأمير المؤمنين فى الكلام ؟

المعتصم : تكلم

أحمد : إلا م دعا ابن عمك رسول الله ﷺ ؟

المعتصم : دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

أحمد : فأنا ياأمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله .

ونزلت كلمات أحمد فى صدق لهجته وعمق يقينه على قلب المعتصم كأن لم يسمع أحداً ينطق بالشهادة بين يديه إلا اليوم . . .

واستطرد أحمد رضى الله عنه يقول :

— إن هؤلاء ياأمير المؤمنين يدعوننى أن أقول : إن القرآن مخلوق ، وهو شىء لا أجده فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ﷺ . يا أمير المؤمنين : حدثنا يحي بن سعيد عن شعبة ، قال حدثنى أبو حمزة ، قال ، سمعت ابن عباس يقول ، إن وفد عبد القيس لما قدموا

على رسول الله ﷺ أمرهم بالايمان بالله ، فقال أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم » فهذا مايرويه جدك ابن عباس عن ابن عمك رسول الله ﷺ ، وهو يعلم الناس الإيمان ، وليس فيه شيء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

وتحدر الإسلام الصافى الذى لا يشوبه كدر ولا تعقيد إلى قلب المعتصم الساذج من فم هذا الإمام الورع الصادق فلم يتمالك المعتصم أن قال :

— إنى لم آمر فيك بشيء ، ولولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى لما تعرضت لك . ثم أطرق قليلا وكأنه قد ضجر من تلك الفلسفة التى يراد إدخالها على عقائد الناس وهو نفسه ليس منها فى قليل ولا كثير ، والتفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :

ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟

فقال أحمد بن حنبل فى نفسه : الله أكبر !! إن فى هذا لفرجا للمسلمين !

وكأن المعتصم رأى أنه لم ينصف المعتزلة ، وأنه لم ينفذ وصية أخيه المأمون إليه فى مناصرة المعتزلة ، وقمع ماعليه أحمد بن حنبل وأضرابه ، فاستدرك قائلا لهم :

— ناظروه وكلموه .

فأبطأ المعتزلة وكأنهم أخذوا بما فجأهم من أمر الخليفة ، فقال المعتصم :

— ناظره ياعبد الرحمن ، كلمه !

— عبد الرحمن : ماتقول فى القرآن ؟

— أحمد بن حنبل : لايجيب .

— المعتصم : أجب يا أحمد .

— أحمد بن حنبل يسأل عبد الرحمن : ماتقول فى علم الله ؟

— عبد الرحمن : لايجيب .

— أحمد بن حنبل : إن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال بذلك فقد كفر .

— عبد الرحمن : لايجيب

— المعتزله : يا أمير المؤمنين لقد كفرنا وكفرك ، ولقد كفر بهذا الكلام رسولك بالأمس حين قال له : إن علم الله مخلوق

— فلا يلتفت المعتصم إلى تحريشهم

— فيرتبك المعتزلة قليلا ، ثم ينبرى عبد الرحمن فيقول :

— إن الله كان فى الأزل ولم يكن معه القرآن .

— أحمد بن حنبل : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فإذا قال

قائل كان الله ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له .

— أحمد بن أبى دؤاد : هو ضال مبتدع يا أمير المؤمنين وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم !

— المعتصم : ماتقولون فيه ؟

— الفقهاء والقضاة : هو ضال مضل مبتدع ...

فيتلطف المعتصم إلى الإمام ويقول له :

— اجبنى يا أحمد إلى هذا حتى أجعلك من خاصتى وممن يطأ بساطى ...

— أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، يأتونى بآية من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ حتى أجيبهم إليها .

— أحمد بن أبى دؤاد : فأنت لاتقول إلا مافى كتاب الله وسنة رسوله ؟

— أحمد بن حنبل : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟

— رجل من المعتزلة : إن الله يقول : « خالق كل شىء » . والقرآن شىء ، فهو ـ إذا ـ مخلوق .

— أحمد بن حنبل : إن هذه الآية عامة أريد بها التخصص لا العموم كقوله تعالى عن الريح التى أهلك بها قوم هود : « تدمر كل شىء بأمر ربها » فهل دمرت كل شىء حقاً أو إنها لم تدمر إلا ما أراد الله !

— المعتزلى : لايجيب .

— معتزلى آخر يقول : إن الله يقول : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » فهل يكون محدثا إلا المخلوق ؟

— أحمد بن حنبل : إن الذكر الذى هو فى القرآن جاء فى قوله سبحانه « والقرآن ذى الذكر » فهو هنا معرف بالألف واللام وفى الآية الأولى بدون ألف ولام فهذه غير تلك .

— أحد المعتزلة : إن عمران بن حصين يروى عن رسول الله ﷺ قوله : « إن الله خلق الذكر » . وفى ذلك تقرير من النبى ﷺ عليه السلام بأن القرآن مخلوق .

— أحمد بن حنبل : أخطأت ، فالرواية التى رويناها عن عمران وغيره من ثقات أهل الحديث هى : « إن الله كتب الذكر » .

— معتزلى آخر : أليس رسول الله ﷺ يقول : « تقرب إلى الله بما استطعت ، فإنك لن تتقرب إليه بشىء هو أحب إليه من كلامه »

— أحمد بن حنبل : بلى ، قد روى ذلك عن رسول الله ﷺ .

— المعتزلى : إن فيه دليلا على أن القرآن مخلوق !

— أحمد بن حنبل : لست أجد فيه هذا الدليل .

— المعتزلى : إذا قرأت القرآن لتتقرب به إلى الله ، ألست تتلو كلمات مؤلفة من حروف وأصوات ؟ وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق ، فهل تجد لك مفراً بعد إذ أمرنا

النبى ﷺ أن نتقرب إلى الله بتلك الألفاظ إلا أن تسلم بأن القرآن مخلوق !

— أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه إذا كتبناه أو تلفظنا به فهى مخلوقة ، ورسول الله ﷺ يقول : « زينوا القرآن بأصواتكم » . فالقرآن إذاً — غير أصواتنا المخلوقة التى نزينه بها ،.. الكلام كلام البارىء والصوت صوت القارىء .

— معتزلى آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبى ﷺ : ماخلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى » وهذا صريح فى أن آية الكرسى مخلوقة ، وهى من القرآن .

— أحمد بن حنبل : فهل تجد فى حديث رسول الله ﷺ أن الخلق وقع على آية الكرسى ؟ إن الحديث صريح فى أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

— أحمد بن أبى دؤاد : إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب إلى الله جوارح تكلم بها كالمخلوقين ، وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

— أحمد بن حنبل : هو أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، لاعدل له ولاشبيه ، وهو كما وصف نفسه ... حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « إن الله كلم موسى

بمائة ألف كلمة ، وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة ، وثلاث عشرة كلمة ، فكان الكلام من الله والاستماع من موسى . فقال موسى أى رب أنت الذى تكلمنى أم غيرك ؟ قال الله تعالى : ياموسى أنا أكلمك لارسول بينى وبينك » . فهذا مايخبر به رسول الله عن ربه ، وأنا ماأقول إلاما يقول رسول الله ﷺ .

— أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله .

— أحمد بن حنبل : إن يك هذا كذباً منى على رسول الله فقد قال الله تعالى « وكلم الله موسى تكليما » وقال « ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ، فهو قول منه سبحانه وليس خلقاً .

وهكذا ظلوا يسألونه وهو يجيب ويعلو صوته عليهم ، حتى اقترب الزوال دون أن يفحموه أو يلزموه الحجة ، فقال لهم المعتصم : قوموا وخلونى مع أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ...

وكان المعتصم قد أعجب بأحمد بن حنبل ، فلما خلا به قال : أما تعرف صالحاً الرشيدى ؟ كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع من الدار جالساً مرة ، فتكلم وذكر القرآن فخالفنى ، فأمرت به فسحب ووطىء ، ولم يشفع له أنه معلمى ... ولكن لا أفعل بك مافعلته به ... إنى لم أكن أعرفك إذ لم تكن تأتينا مع من يأتى ...

فقال عبد الرحمن بن إسحاق : يا أمير المؤمنين ، إنى أعرفه

منذ ثلاثين سنة ، إنه يرى طاعتك ، والحج والجهاد معك وهو ملازم منزله ...

فقال المعتصم : والله إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، وإنى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ... ولئن أجابنى إلى شىء مما أدعوه إليه لأطلقن عنه القيود بيدى ، ولأركبن إليه بجندى ولأقدمنه حتى أطأ عقبه . . .

— أحمد بن حنبل يسمع كل ذلك وهو صامت .

فيلتفت إليه المعتصم ويقول : ويحك يا أحمد . ماتقول فيما أعرض عليك ؟

— فقال أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ! !

فلما طال المجلس ضجر المعتصم وقام ، وأعيد الإمام إلى معتقله ، وذهب إليه رجلان من أتباع ابن أبى دؤاد لمناظرته لعله يجيب إلى خلق القرآن ... وجاءت مائدة ، فأكل الرجلان ، وأما أحمد فجعل يتعلل حتى رفعت ...

وذهب أحمد بن أبى دؤاد إلى الإمام فى معتقله ، وقال له : والله لقد كتب اسمك فى السبعة الذين قتلوا ولكنى محوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك . . . واعلم أنه ليس السيف ، إنه السوط ، والضرب بعد الضرب ..، فانظر ماتقول ، وإنى لا أرى لك إلا أن

تجيب أمير المؤمنين

فلا يزيد الإمام على أن يقول : إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ . . .

وخرج أحمد بن أبى دؤاد ، ولم يلبث أن جاء رسول ينادى أحمد بن عمار ، صاحب الدار التى اتخذت معتقلا للإمام ؛ فخرج معه وعاد يقول : إن أمير المؤمنين يقول لك : أجبنى حتى أجىء إليك بنفسى فأطلق عنك بيدى ... فلا يزيد الإمام على قوله : إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ . . .

ومازالت الرسل تأتى أحمد بن عمار ، فيذهب لمقابلة الخليفة ليعود إلى الإمام حاملا رجاءه حتى انقضى النهار وشطر من الليل .

فلما كان اليوم الثانى ، أدخل على المعتصم وجرت المناظرة بحضرته ، وكانوا يهربون من منازلة ابن حنبل فى ميدان الكتاب والسنة إلى ميدان الفلسفة ، فيقول لهم : لا أدرى ماتقولون ، فأتونى بشىء من كلام الله أو سنة رسول الله ﷺ ، أو خبر أو أثر ... ! فيقولون : يا أمير المؤمنين ، إذا توجهت له الحجة علينا وثب ، وإذا كلمناه بشىء يقول : لا أدرى ما هذا ...

فيقول المعتصم : يا أحمد إنى عليك شفيق ...

ويقول أحمد بن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين والله لئن أجابك لهو أحب إلى من مائة ألف دينار ، ومائه ألف دينار ، ومائة ألف

دينار فيعد ماشاء الله من ذلك ...

ولما كان الزوال أمرهم المعتصم بالانصراف ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ، ودار الكلام بينهم ، المعتصم يتلطف ويلين ، وعبد الرحمن يذكر مناقب أحمد وفضله ، وأحمد يقول : بيني وبينهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا أجيبهم إلا إلى شيء منها ، وطال المجلس فقال المعتصم :

ـ أندعو أحمد بن أبي دؤاد ؟

فقال أحمد بن حنبل : ذلك إليك يا أمير المؤمنين .

فحضر ابن أبي دؤاد واشترك في المناظرة ، فلما امتد المجلس على غير فائدة لهم قام المعتصم ، وأعيد الإمام إلى معتقله ، ومالبث أن دخل عليه الرجلان اللذان دخلا عليه بالأمس لمناظرته ، وجعلا يكلمانه حتى حان وقت الإفطار فجيء بطعام على نحو مما أتى به في الليلة السابقة ، فأفطر الرجلان وجعل الإمام يتعلل ...

فلما رفع الطعام جاء رسول الخليفة يستدعي أحمد بن عمار صاحب دار المعتقل ، فذهب ، وعاد فقال للإمام : يقول لك أمير المؤمنين أجبني حتى أحضر إليك بنفسي ... إلخ . فلا يزيد على أن يقول لهم : كتاب الله وسنة رسوله .

وكانت بغداد خلال هذين اليومين شعلة نار متقدة تملأها الإشاعات والهرج والمرج ، وامتلأت سامرا ـ مقر قصر الخلافة ـ

بوفود عامة أهل بغداد وخاصتهم ، فصارت بهم كالبحر الزاخر ، وليس منهم رجل إلا وعطفه مع أحمد بن حنبل ، وسخطه على الخليفة وعلى أحمد بن أبي دؤاد وسائر المعتزلة ...

وكانت أنباء ذلك كله تبلغ الخليفة فيشعر كأن ريحاً عاتية توشك أن تهب عليه فتقتلع عرشه ويهوى به إلى مكان سحيق ، فيأخذه الخوف ويلجأ إلى ملاينة الإمام لعله أن يجيب فتنتهى المحنة وتهدأ ثائرة الناس ، ولكن الإمام لا يعنيه ملاينة الخليفه ، ولا مؤازرة الجماهير ، فالأمر لديه أكبر من ذلك ، هو احتفاظه لله بما استرعى العلماء من أمانة ، فإن حفظ وصبر كان قدومه على الله قدوما كريما وله اجر ما امتحن به ، وإذا فرط وضيع كان قدومه على الله قدوما مهينا ، وحمل بين يديه تبعة تلك الجماهير التى ستقلده فيما يقول من خلق القرآن .

وجعلت رسل الخليفة فى تلك الليلة العاصفة تأتى لاستدعاء أحمد بن عمار ، وجعل أحمد بن عمار يمضى ويأتى بكلام من أمير المؤمنين ، دون أن يثمر ذلك شيئاً ، فجاء أحمد بن ابى دؤاد ، فقال يا ابن حنبل ، إنه قد حلف أن يضربك ضرباً ، وأن يحبسك فى موضع لاترى فيه الشمس . فقال أحمد بن حنبل : فماذا أصنع ؟ قال : تجيب الخليفة إلى مايدعوك إليه ! فقال : لا ... إلا بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ...

وباتت بغداد وسامرا تين تتحدثان بمحنة الإمام الجليل.. أما الإمام فقد غفا غفوة قام على أثرها نشيطاً إلى وضوئه وتهجده وقراءته، فلما صلى الفجر وأسفر النور بصبح اليوم الثالث، أحست بصيرته شيئاً لاتراه الأبصار ... أحست مقادير المحنة كأنها شاخصة فى الفضاء تنتظر أن تنفذ فيه، فقال: « لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء ».

قال أحمد بن حنبل: وكنت قد أخرجت تكتى من سراويلى فشددت بها قيود الحديد فى قدمى أحملها بها إذا توجهت إلى الخليفة. فلما كان صبح يوم المحنة قلت: لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء، وكنت بلا سراويل، فخشيت إن حدث شىء أن أتعرى، فأعدت التكة إلى سراويلى وشددتها على، وطلبت من أحد الموكلين بى خيطاً أشد به الأقياد... !

وعلا النهار. وأصيب المعتصم بشعور مضطرب، فهو يريد أن يبطش بابن حنبل، ولكن هيجة الجماهير تخيفه فتنقبض يده عما يريد... ولكنه الفارس المعلم، الذى لم يعتد أن يرى نفسه جباناً فى موقف من المواقف، فكيف يستر ضعفه هذا اليوم عن أنظار من حوله؟! لقد هداه شعوره المضطرب إلى أن يملأ ردهات القصر وساحاته ومداخله ومخارجه بصنوف الجند حاملين ألوان الأسلحة، لابسين لأمة الحرب الكاملة، ثم أنفذ أمره فى رجلين

ممن لايقولون بخلق القرآن فقتلهما ، وخيل إليه أنه قد سيطر على الموقف وظفر بإعجاب من حوله ، وحسب أن ذلك خليق أن يلقى فى روع ابن حنبل أن الأمر جد لاهزل ، فينثنى عن عناده ويجيب إلى مايدعوه إليه !

قال الإمام أحمد : فلما شددت قيودى بالخيط الذى جاءوا به طلبت إلى مجلس الخليفة ، فجعلوا يمرون بى من ساحة الى ساحة ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح ، وقد حشيت الدار بالجند ، ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء ، حتى إذا صرت إلى الخليفة قال : ناظروه .

وجرت المناظرة على نحو ماجرت عليه فى اليومين السابقين ، حتى إذا جاء وقت الزوال خلابى وبعبد الرحمن ، فقال لى : ويحك يا أحمد ، أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هارون ابنى ، فأجبنى ... فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، فلما طال المجلس ضجر وقام .

وكان يريد أن يصرف المحنة عن أحمد لما يجد من الخوف على عرشه ، ولكن ابن ابى دؤاد قال له : « يا أمير المؤمنين ، إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله » ... وقال إسحاق ابن ابراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن يخلى سبيله فيقال : إنه غلب خليفتين » فعند ذلك حمى الخليفة

واشتد غضبه وأقبل على أحمد بن حنبل وقال : لعنك الله ، طمعت فيك فلم تجبنى ... خذوه اخلعوه ، اسجنوه .

قال الإمام أحمد : فأخذت وسحبت وخلعت وجىء بالعقابين ، أى عدة العذاب التى يشد إليها المبتلى ، وكان معى شعرتان من شعر النبى ﷺ فصررتهما فى كم قميصى ، فقال إسحاق بن إبراهيم : ماهذا المصرور فى كمك ، فقلت هما شعرتان من شعر النبى ﷺ فأراد بعض القوم أن يحرق القميص فنهاهم عنه ... فلما شددت إلى العقابين ، وجىء بالسياط نظر إليها الخليفة فلم تعجبه فأمر بأشد منها وأقوى ، فجىء له بما أراد ، واحضر الجلادون الغلاظ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، الله الله ، بما تستحل دمى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولم آت شيئاً مما يهدر الدم ..؟ يا أمير المؤمنين أذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك !

قال الإمام أحمد : فكأنه أمسك ومال إلى صرف المحنة ، ولكنهم لم يزالو به يقولون له : يا أمير المؤمنين ، إنه ضال مضل كافر ، وإن دمه فى رقابنا حتى أقنعوه بإنفاذ المحنة ، فجىء له بكرسى وأحمد بن أبى دؤاد واقف على رأسه ؛ فتقدم الضارب الاول ومعه سوطه ، فقال المعتصم : شد قطع الله يدك ! فشد الرجل بسوطين ثم تنحى ؛ وتقدم جلاد آخر ، وآخر ، كل يقول له المعتصم : شد وأوجع قطع الله يدك ، فيشد كل بسوطين ويتنحى ، وتوالت

السياط كأنها جمر جهنم . وأحس أحمد بتكة سراويله تحور خيوطها تحت الضربات القاطعة فلم يبق فيها إلا خيط أو خيطـان ، فطمح ببصره إلى السماء وقال : ياغيـاث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم انى قائم لك بحـق فلا تهتك لى عورة ! ! وثبت الخيط الرقيق لمـا لم تثبت له خيوط التكة كلها ، وستر الله سوأة الامـام أن تنكشف . . . .

قال الإمام : واستمر الجلادون يشدون بسياطهم حتى أغمـى على . . فأمسكوا حتى أفقت وسكن عنى الضرب . فقام الى المعتصم وقال : ويحك يا أحمد أجبنى حتى أطلق عنك بنفسى ؛ وهم محيطون بى ، فيقول لى أحدهم : ويحك ، إمامك قائم عـلى رأسك فأجبه ، وينخسنى آخر بقائم سيفه ويقول تريد ان تغلب هـؤلاء كلهم ؟ فأقول : لا أجيب إلا لشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ... فيعود المعتصم إلى كرسيه ويقول للجلاد : شد وأوجع قطع الله يدك ، وأخذ الجلادون يتبع كل منهم سابقه ، كل يضرب سوطين ويتنحى لمن بعده ، حتى يشتد بى الضرب ، ويعظم الألم ، فيذهب عقلى ويغمى عـلى . . . .

حتى إذا افقت وعاد إلى عقلى ، قام إلى بنفسه وقال مثل مقالته . فلا أجيبه إلى مايدعونى إليه ، فيقول عبد الرحمن بن إسحاق لى : من صنع بنفسه من أصحـابك فى هذا الأمر ماصنعت أنت بنفسك ! !

هذا يحى بن معين وهذا أبو خيثمة ، وهذا فلان وهذا فلان ،وجعل يعدد أسماء من أجاب . فلا أجيبه إلا بنحو مما كنت أقول لهم ... فقال المعتصم للجلاد : شد وأوجع ، فأقبل علىَّ الجلادون كل يضرب بسوطيه ويتنحى

ثم جاء إلىَّ الثالثة فدعانى فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلى فلم أحس به ، فأرعبه ذلك من أمرى.. وكان النبأ قد تسرب إلى الجماهير الزاخرة ، فضج الناس وهاجوا ، وعظم عليهم الخطب ، فخاف المعتصم وأمر بإطلاقه لفوره .

قال ميمون بن أصبغ : « أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان » . وقال المعتصم بعد أن أطلقه : « لو لم افعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه » .

قال الإمام أحمد : فلما أفقت لم أشعر إلا وأنا فى حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلى وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين .

وحمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن ابراهيم نائب بغداد ، وهو صائم ، فأتوه بسويق ليفطر من الضعف فأبى ، وأتم صومه . ولما حضرت صلاة الظهر صلى معهم ، فقال له ابن سماعة القاضى : « وصليت فى دمك ؟ » فقال له أحمد : « قد صلى عمر وجرحه يثعب دماء » . فسكت

وعاد أحمد إلى منزله لأول مرة بعد أن غادره منذ أكثر من ثمانية وعشرين شهراً ، وجاء الجراح من قبل الخليفة يعالج له جراحه وكان المعتصم يخشى أن يصاب أحمد بأذى من تلك الجراح ، فكان يسأل عنه نائب بغداد كل يوم ، وكان النائب يرسل من يسأل عنه كل يوم ، فلما شفى فرح المعتصم وسكن خوفه على ملكه .

وسما أحمد عن الحقد والضغينة ، فلم يذكر أحداً ممن آذوه بسوء . وجعل كلا منهم فى حل إلا أهل البدعة ، فقال له ابنه صالح فى ذلك ، فقال : يابنى (وليعفوا وليصفحوا) ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسبيلك ؟ وقد قال تعالى (فمن عفا واصلح فأجره على الله) فإذا كان يوم القيامة وجثت الأمم بين يدى رب العالمين ، نودوا : ليقم من كان أجره على الله ! فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا ، وإنى لأرجو أن أكون واحداً منهم ! !

فى هذا الأفق الفسيح العالى كان أحمد رضى الله عنه يسبح بروحه وذهنه ، فهل كان خصومه بعد أن شفوا صدورهم بعذابه وآلامه وسجنه يذهبون هذا المذهب ؟ .

إنهم ماحسدوا أحمد على شىء ، حسدهم على هذه المحنة ، لا لأنه صبر على الضرب والسجن واستوجب مثوبة الله ، بل لأن ذكره طار كل مطار فى الآفاق ؛ فالناس فى أمصار الإسلام وأقطاره النائية معجبون بثباته ، وورعه ، وشجاعته ، وحفاظه على دين الله ، يتلقفون

أخبار محنته فى شغف وعطف وتأثر ، ويسمعون قصص تلك البطولة يرويها كل طارىء يطرأ عليهم من دار الخلافة فى همس واستخفاء ، ولا يلبسون أن ينثنوا بها إلى مجالسهم وسمرهم فتكون زادهم من أحاديث السياسة والدين والعلم والموعظة . حتى فشا ذكر احمد وتعصب الناس لرأيه فى محنة خلق القرآن ، وحتى اضطر ولاة الأقاليم وأمراء الأمصار إلى اضطهاد العلماء والزهاد ، وسجنهم وضربهم إذا لم يقروا بأن القرآن مخلوق . . . فاشتد الكرب بالناس ، واشتد تعصبهم لرأى أحمد ، واضطر كثير من العلماء والزهاد إلى الفرار والاستخفاء من وجه الظلم والمحنة . . .!

أما بغداد - عاصمة الملك ، ومقر البطل الورع - فلم يكن فيها قلب ، فيما عدا قلوب أهل البدعة ، إلا وسكنه أحمد . . . ولم يكن فيها نفس إلا والامير عليها رأى أحمد ، ولم يكن فيها لسان ، أو دار أو مجلس ، أو ندوة إلا وذكر أحمد والثناء عليه والإعجاب به ، هو القربة التى يتقربون بها إلى الله جل شأنه . . .

نعم ، كان ذلك شأنه ببغداد ، لدى خاصة الناس وعامتهم على السواء . فهذا مجلس من المجالس تذكر فيه مناقب أحمد ، فيقول يحى ابن معين : « لو جلسنا مجالسنا كلها تثنى على أحمد ماذكرنا فضائله بكمالها » . . . وهذا مجلس غيره يقول فيه إسحاق بن راهويه : « لولا أحمد بن حنبل وبذله نفسه لما بذلها له ، لذهب الإسلام » . وهذا

مجلس ثالث يقولون فيه لبشر بن الحارث وهو من هو : هلا تكلمت أيام ضرب أحمد بن حنبل ! فيقول : « أتأمرونى أن أقوم مقام الأنبياء ؟ إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبة حمراء ! » . . .

أما العامة من أهل بغداد ، فلا سبيل إلى تصوير سيطرة أحمد على قلوبهم ومشاعرهم ، ويكفى أن نعلم أنه بعد مرور مائة عام على المحنة كان الحنابلة هم المسيطرين على عامة شئون بغداد « يكبسون دور القواد والعامة ، فإذا وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها ، وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، وفى مشى الرجال مع الغلمان الصغار » كما يقول أبو الفداء فى تاريخه .

... ذلك ذكره بين أهل الإسلام ، أما ذكره فى سواهم والثقة به ، فحسبك منه ما كان يرويه نوح بن حبيب ، قال كان عندنا ـ يعنى فى بلدهم — امرأتان مجوسيتان ، فاختصمتا فى مواريث لهما إلى رجل من المسلمين ليقضى بينهما ، فقضى لواحدة منهما على الأخرى ، فقالت له الأخرى : « إن كنت قضيت على بقضاء أحمد بن حنبل فقد رضيت ، وإلا فإنى لا أرضى » قال نوح : فحدثت به أهل طرسوس والشامات .

لقد أراد خصومه أن يخفتوا صوته ، ويطفئوا نوره ؛ فأبى الله إلا أن ينطلق هذا النور فى الآفاق ، وأن يمتد موج هذا الصوت القوى إلى كل أذن وكل قلب .. وما سعى أحمد إلى شىء من ذلك ،

وما كان له فيه من أرب ، فنفسه مشغولة بتحصيل حظها من الله متجردة لتنسيق خواطرها ومشاعرها مع مرضاته سبحانه ، أما ذلك الذكر الذى طار له فى الآفاق ، وذلك الجاه الذى انعقد له فى الناس ، فلم يكن له فى نفسه من أثر ، فإن الالتفات إليه ، والتجاوب معه موجب للسقوط من عين الله ، وما كان أحمد ليشترى الجاه عند الناس بالجاه عن الله ، ويجعل سلعته فى ذلك دين الله جل جلاله ... إنها نفس تحلق فى ملكوت رفيع لا يصل إليها فيه للناس همس أو ضجيج ... ومع ذلك ، هل سلم من دسائس خصومه وأذاهم ؟!

لقد أزعجهم وأكل قلوبهم أن تكشفت المحنة عن ميلاد عملاق لم يكن فى حسبانهم أن يولد ... فاجتمعوا بعد خروجه من سجنه وإبلاله من مرض محنته ليروا رأيهم فيه ... !

ولم يفزعوا إلى المعتصم فيما يريدون ، فإنهم يعلمون عزوفه عن المشاركة فى محنة جديدة ، ويعلمون أنه ماحمد الله على شىء قدر ماحمده على شفاء أحمد ، لما يرى فى ذلك من استتباب ملكه ، وسكون رعيته من الفزع والثورة ... ولم يكن فى مقدورهم أن ينالوا منه أو يفعلوا معه أكثر من التضييق عليه ، والحجر على حريته ، واعتقاله فى داره ، لا يغشى سوقا ، ولا يلم بمجلس ، ولا يذهب لزيارة أحد من الناس ... بل لا يخرج لصلاة جمعة ولا لصلاة جماعة ، كل

صلاته يؤديها فى بيته .

لقد صورت لهم حلومهم المذعورة ، وقلوبهم الطائشة الفزعة أن هناك خطراً يتهدد جاههم ونفوذهم فى الدولة إن اتصل هذا القديس الروحانى بالجمهور واتصل الجمهور به ، فأداهم التآمر عليه إلى اعتقاله فى داره على الصورة التى ذكرنا ، أو « تحديد محل إقامته » على ماجرى به التعبير فى استعمالنا الحديث .

ووكل المتآمرون تنفيذ قرارهم إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد العنيد [1] ، والمساهم فى محنة الامام باوفى نصيب . فأرسل إلى الامام يأمره بالتزام داره لايبرحها لصلاة جمعة ، ولا لصلاة جماعة ، ولا لما هو أجل من ذلك أو أقل

وكان الأمام رضى الله عنه يزهد فى غشيان المجالس ولا يجد فى طبعه نشاطا إلى الالمام بمجتمعات الناس ، فلم يزعجه قرار الاعتقال من هذه الوجهة ، لكنه ألم أشد الألم ، واغتم غاية الغم لحرمانه من المسجد ، وتحصيل ثواب الجمعة والجماعة ، والجلوس لدعوة الناس فيه الى الله سبحانه !

وهكذا خرج أحمد من سجن الخليفة ، ليعانى محنة سجن آخر فى بيته . . . .

وامتدت المحنة بقية أيام المعتصم ، وتلتها أيام الواثق ، وكان

---

(١) كلمة نائب تعادل فى عرفنا الحالى كلمة محافظ .

الواثق شديد الوطأة على من لايقول بخلق القرآن ، حتى قيل انه طلب أن لايساكنه أحمد بن حنبل فى أرضه . . . ومضت الأيام ثقيلة رهيبة ، ونجم المعتزله فى صعود، ومحنة الإمام تستحكم وتشتد ، حتى انتهت أيام الواثق . . . وحار رجال الدولة فيمن يولون بعده فقام أحمد بن ابى دؤاد فسخر سلطان الدولة لمجد المعتزله ، وألبس المتوكل حلة الخلافة ، وعممه ، وقبله بين عينيه ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . ومضت الأيام وتعاقبت السنون ، والإمام محتجز فى داره لايبرحها سبعة عشر عاما . .

وكان المتوكل لايرتاح للقول بخلق القرآن ، لكنه كان يكره على بن ابى طالب كرم الله وجهه - ويسرف فى مطاردة العلويين - فنشط المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام ، ويتهمونه بالجنوح لشيعة على ، وتتطور المحنة لتأخذ لونا جديدا آخر ، وتشتد الرقابة على الإمام ، ويرسل إليه نائب بغداد عبد الله بن إسحاق :الزم بيتك ولا تخرج وإلا نزل بك مانزل بك فى أيام والدى إسحاق ابن ابراهيم . . . .

وامتدت اعناق أهل الفتنة ، فاتهموا الإمام لدى الخليفة أنه يؤوى فى بيته أحد العلويين ذوى القدر الخطير ... ويثور الخليفة فيرسل بفوره إلى بغداد لمفاجأة بيت أحمد والقبض على العلوى المزعوم !

وفى ليلة من الليالى ، بعد أن نام الناس ، وهدأت الحركات ، وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكتة ، سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره ، فقام إلى الباب ففتحه ، فإذا به أمام رجلين وامرأتين .

أما الرجلان : فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد ، والآخر ابن الكلبى صاحب البريد .

وأما المرأتان فمهمتهما هى مهمة البوليس النسوى فى أيامنا هذه ..

قال مظفر : يقول لك الأمير ، إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته .

وقال ابن الكلبى : نعم إنك تؤوى فى بيتك علويا من أعداء امير المؤمنين ، وقد جئنا لأخذه .

فقال الامام : إنى لا أعرف هذا ، ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره والأثرة ...

وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ ، واستأنف يقول : « إنى أستأسف عن تأخرى عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين ... »

قال ابن الكلبى : قد أمرنى أمير المؤمنين أن أحلفك ماعندك طلبته ... أفتحلف ؟

قال أحمد : إن استحلفتنى حلفت .

فأحلفه ابن الكلبي بالله فحلف ... وبالطلاق فحلف ...
وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا ... وحضر ابنه صالح أبو الفضل ... فقال ابن الكلبي :
أريد أن أفتش منزلك ... ونظر إلى أبي الفضل وقال : ومنزل ابنك .
وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت ... وفتشت المرأتان النساء ، فلم يعثروا على شيء .
وفتشا بيت أبي الفضل ، فلم يجدوا شيئاً ...
وفتشت المرأتان أماكن الحريم ... وجاءوا بشمعة فأدلوها فى البئر ، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئاً .
وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ، ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ... ومن براءته مما عزاه إليه خصومه ...
وأذن الله بانكشاف الغمة ، فجاءه بعد يومين كتاب من على ابن الجهم[1] إن أمير المؤمنين ، قد صح عنده براءتك مما قذفت به ،

---

(١) هو الشاعر الفحل من شعراء الدولة العباسية ، وكان فيما مضى يختلف إلى مجالس الامام أحمد وصحح عقيدته فيما يسمعه منه . فلما انقضت مدة الواثق الذي كان شديداً على أهل السنة ومناصراً للمعتزلة ارتفع صوت على بن الجهم بالثناء على المتوكل ومجافاته المعتزلة ، وازدادت صلته به وثقة الخليفة به إلى حين . وفى مدة اتصاله =

وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم ، فالحمد لله الذى لم يشمتهم بك »

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وُدَّه ، وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه . . . وأخذت الأيام تدبر مولية بمجد المعتزلة . . . فمرض ابن أبى دؤاد بالفالج . . . وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام بذكر ما نزل بابن أبى دؤاد ، ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص . . . فلم يلتفت إليهم أحمد وصمت ولم يرد ، وظهر عليه التبرم بما قالوا . . .

ومضت الأيام فى إدبارها على المعتزلة ، فغضب الخليفة على ابن أبى دؤاد ، وقبض على أبنائه ، وصادر أملاكه وأمواله وجواهره ، وأخذ ابن أبى دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه . . . فكان يأتيه من يحمل إليه تلك الأنباء ، فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص ، بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبى دؤاد فكان يسكت ولا يجيب بشىء

وهو موقف جدير أن يلقى على الناس دروساً فى عظمة النفس ،

= بالمتوكل وقعت الوشاية على الامام أحمد بايوائه العلوى ، فلما ظهر كذب أصحابها تمكن على بن الجهم من إقناع المتوكل بالتفريج عن الامام أحمد ، وكان ابن الجهم هو الذي كتب الى الامام بهذه البشرى . (انظر مقدمة الأديب الكبير الاستاذ خليل مردم بك لديوان على بن الجهم ، ووصف الديوان والكلام على ناظمه فى مجلة الازهر جزء رمضان ١٣٧٢) .

وشدة الإقبال على جلائل الأمور ، والانصراف عن سفسافها وتافهها . . . رحم الله الإمام ، لقد كان إماماً فى كل مكرمة ! .

وبعد ، فهل سعدت حال الإمام بإقبال الخلافة على وده ، وطلب المؤانسة بقربه ؟

قد يقول كثير من الناس نعم . . . ولكن أحمد يقول : لا ، إنها محنة الدنيا ابتلى بها بعد محنة الدين ! ! فكيف كان ذلك ؟ .

***

ظهر إفك المعتزلة وكذبهم على أحمد ، فأرسل اليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه :

« قد صح نقاء ساحتك ، وقد أحببت أن آنس بقربك ، وأتبرك بدعائك ، وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك » .

وهكذا انتهت محنة الحبس والاضطهاد عن احمد ، وبدأت الأيام تقبل عليه بلون آخر ، ووجه جديد .

بدأ الجاه الواسع ، والكرامة الجزلة ، والمال الكثير يخطب وده . . . وأقبل الخليفة يمد إليه يده بكل ذلك .

وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه ، وحل بالدار نشاط وأنس ، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة ، وكان ذلك حرياً أن يمس حياة الإمام بشيء من النضارة والسعة عقب ما قاسى فى السنين الطوال

العجاف من قسوة وضيق ومناوأة . . ولكن هيهات ! ؟

فقد تألق أحمد على المحنة ، وصفا وأشرق ، وسما عن دنيا الناس ، ولم ير فى إقبال هؤلاء عليه إلا إقبال محنة من لون آخر لا يعصم من شرها إلا الله .

قال ابنه صالح : « لما جاء كتاب المتوكل بالمال ، نادانى أبى فى جوف الليل ، فقمت إليه فإذا به يبكى ، فلما رآنى قال : ما نمت ليلتى هذه ! . . . سلمت من هؤلاء ، حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم . . ! ؟ »

فلما كان الصباح جاء الحسين البزار والمشايخ ، فقال : ياصالح ؛ جئنى بالميزان وبالدراهم . . . ثم أخذ يزن المال ، ويقول وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين . . . وهذا إلى أبناء الأنصار . . . وهذا لفلان ليفرق فى ناحيته . . . وهذا لفلان . . . وهكذا حتى فرقها كلها . . . فلما أحس أنه فرق معها كربته ، تنفس الصعداء ، ونفض الكيس ، ثم تصدق به .

قال صالح : ونحن فى حالة الله بها عليم ؛ فجاء ابن له صغير ، فقال : يا أبت ، أعطنى درهما ! فنظر إلىَّ ، فأخرجت قطعة من جيبى أعطيته إياها .

وبلغ الخبر المتوكل ، فقال على بن الجهم — وكأنه يريد أن يزيل شيئاً علق بنفس الخليفة — ياأمير المؤمنين ، ما يصنع أحمد بالمال ، وقوته رغيف ، إلا أن يتصدق به ؟ وقد عرف الناس أنه

قبل منك الصلة ولم يردها . . !

قال الخليفة : صدقت . . .

وكان لابد لأحمد من تلبية أمر الخليفة ، لا خضوعاً لقوة السلطان ، بل وفاء لحق السمع والطاعة الذى فرضه الإسلام لولى الأمر فى غير معصية . . . فخرج من بغداد إلى سامرا ، ومعه يعقوب المعروف بقوصرة ، وهو الرسول الذى حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب ، وخرج معه بعض بنيه .

وكان يعقوب شديد السرور والزهو بنجاح مهمته ، فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه . . . وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك ؛ فلما صار على مقربة من سامرّا ، أراد أن يعجل البشرى بقدوم الإمام . . . وحدثته نفسه أن يجعل تلك البشرى مضاعفة الأثر ، حافلة بأسباب المسرة ؛ فما أحسن أن يكتب أحمد بنفسه كتابا للخليفة — وهو فى طريقه إليه — بما شاء من الثناء والتقدير ، ومعانى الولاء لسلطانه ! .

وراقت الفكرة ليعقوب ، فطار لها لبه ، أليس يرى الخليفة فيها أكثر مما كان يطمع من أحمد ؟ . . وأقبل يعقوب على الإمام .

يا لله ! . . إن الإمام فى واد غير وادى الناس ، وكربه يزداد ساعة بعد ساعة كلما اقترب من دار الملك .

ولقد غطى رأسه بغطاء غليظ ، ونكسه ولا يرفعه فى أحد . .

وألقى يعقوب كلماته التى يريد ، واقتحم بها عليه عزلته وكربته ، فأذا الإمام يضيق بتفاهة ما يفكر فيه الناس ، فلم يلتفت إلى الكلام ، ولم ير صاحبه جديراً بأن يرد عليه بشىء ! . . فغضب يعقوب وأخذته العزة بالاثم . . وأقبل على صالح يقول له : « ما رأيت أعجب مما نحن فيه ! . . أسأله أن يطلق لى كلمة أخبر بها امير المؤمنين فلا يفعل ؟ ! » .

***

نزل الامام « بسرَّ من رأى » ضيفاً على أمير المؤمنين ، . . ولم يكن للخليفة من هم ـ بعد أن عرف كل شىء عن أحمد ـ إلا أن يرضيه ، وأن لا يحمله على شىء يكرهه . . . وحسبه أن يعلم عامة الناس أن أحمد بن حنبل فى ضيافته ، فهذه الضيافة وحدها لها من التفسير والتأويل عند الجمهور ما يتوطد له الملك ، ويستقر عليه أمر السلطان .

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله ، فلم يكن له بد من النزول على رغبته ، واحترام إرادته ، ولكن لابد من أن يصله فى قرابته ، فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم . . . وتسلم صالح ابنه — بأمر الخليفة — عشرة آلاف على الفور مكان التى فرقها أبوه ببغداد ، على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم .

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة على أحمد ، وشدة إقباله عليه ، وإكباره له ، فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم ، كل يخطب

وده ، ويبتغى إليه المنزلة ، ويحاول أن يسرَّه بما يستطيع .

فهذا وصيف — عاهل رجال القصر — يرسل ابن هرثمة حاملا إليه التحية ويقول : « الحمد لله الذى لم يشمت بك الأعداء أهل البدع . . . قد علمت من حال ابن أبى دؤاد . فينبغى أن تتكلم فيه مايجب لله » .

والقوم لا يدركون أن أحمد قد وهب لله ما لقى بسبب ابن أبى دؤاد من السجن والتعذيب والاعتقال ، وضروب المحن ، وسما بذلك عن التأثر والضغينة ، فليس فى قلبه من موجدة لخصمه القديم العتيد . . . وليس لتلك الوسائل التى يتقربون بها إليه ، ويثيرون بها إحن الماضى أقل نصيب من عنايته أو احترامه .

ويجىء من رجال القصر من يسأله رأيه فى ابن أبى دؤاد ، وفيما اقتنى من الأموال والضياع والجواهر فلا يجيب . . !

ويجىء يعقوب وسواه ليحدثوه بما يجرى لابن أبى دؤاد من المحن . . . فمرة قد أشهد عليه ببيع ضياعه . . . وثانية قد أخذ إلى بغداد مقبوضاً عليه . . . وأخرى . .

كل ذلك والإمام فى أفقه العالى ، لايزيده سماع الرياء والسفساف إلا زهدا وانقباضاً ، وضيقاً بما يحيط به من أجواء النفاق والملق وأسباب الفتن والبلاء .

أمر الخليفة أن تفرش الدار التى هيئت له بالفرش الوثيرة .

وان ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة .

وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة : طيلسان وقلنسوة وشارات وسمية من السواد الذى اختارته الدولة العباسية شعاراً لها

ويحضر يحيى بن خاقان فيقول : إن الخليفة أمرنى أن أصير لك مرتبة فى أعلى ، ويصير ولده المعتز فى حجرك ، تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ .

إنها الدنيا تقبل بالجاه الجزل ، والمقام المرموق ، وتتبرج له بكل ماتستطيع من زينة ، علها تظفر منه ولو بلفتة ، أو لحظة من جانب الحدق ! .

وجاء يحيى فى اليوم التالى يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ، ويقول فى لهجة مهذبة : تركب يا أبا عبد الله ؟ .

فيقول الإمام : ذاك إليكم .

وكان يوماً مشهوداً فى القصر ، ألبسوه هناك الطيلسان ، وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ... ويقول بعض الخدم ! إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستر القصر ، يرقب فى خفاء ما يكون من أحمد ، فلما رآه يدخل ، أخذته رجفة ، وغشيته هزة من الفرح ، ولمع السرور فى عينيه وقال : « يا أمَّه ، قد أنارت الدار بدخول أحمد ! » .

إذا جاز أن يعتذر الدهر لإنسان عن إساءة أسلفها إليه ، فهل

يعتذر بمثل مايعرض اليوم على أحمد بن حنبل من الكرامة المقبلة بلا قيد ولا شرط ؟ .

يقول ابنه صالح : لما عاد أبي من القصر إلى الدار التى أعدت له ، نزع عنه الثياب التى أنعم بها عليه ، وجعل يبكى ويقول : « سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى إذا كان فى آخر عمرى بليت بهم ؟ . . ما أحسبنى سلمت من دخولى على هذا الغلام ، فكيف بالخليفة الذى يجب على نصحه من وقت أن تقع عينى عليه إلى أن أخرج من عنده ؟ » .

ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه : « وجه بهذه الثياب إلى بغداد ، فبعها وتصدق بثمنها ، وحذار أن يشترى أحد منكم شيئا منها ! » .

أما الفرش الوثيرة الطرية ، فقد نحى نفسه عنها ، وألقى بنفسه على مضرَّبة خشنة له . . . ونظر إلى حجرة فى جانب الدار ، فأمر أن يحول إلى ركن منها ، وأن لايسرج له فيها سراج قط .

وأما المائدة فقد عافها ، فلم يدخل بطنه شىء منها . . . وكانت شهية حافلة ، حتى إن صاحب الدار التى كانوا ينزلون بها — لما رأى إعراض أحمد عنها — ساوم صالحاً بثلاثة آلاف يدفعها له مكانها كل شهر فأبى . . . وناهيك بمائدة تتكلف كل شهر ثلاثة آلاف

أو أكثر فى تلك العصور الخاليات ! ! .

بلغ الضجر بالإمام كل مبلغ ، وبرم بكل شىء ، وزهد فى كل شىء . . . ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة ، حتى كان يدعهم مع بنيه فى الدهليز ويقبل على صلاته وقراءته ما شاء الله . وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم !

اشتكت عينه مرة ، فلما برئت ضاق ببرئها ، وقال لولده صالح : « ألا تعجب ؟ ! كانت عينى تشتكى فتمكث حيناً حتى تبرأ ، ثم هى فى هذه المرة تبرأ فى سرعة ! » .

أقبل الإمام على الصلاة لا يفتر . . . وعلى القرآن يختمه كل جمعة . . . وعلى الصيام يواصله فى الصيف القائظ ، فلا يفطر إلا كل ثلاثة أيام . . . أو كل يومين ، فإذا أفطر ، أفطر على تمر وسويق أو على رغيف ! وكانت المائدة توضع فى الدهليز حتى لا يراها ! . . . فساءت صحته وذهبت قوته وضعف بدنه .

وكان يأخذه العطش ، ويجهده الحر ، فتبل له خرقة بالماء ، فيضعها على صدره الذى يعلو ويهبط بما يتردد فيه .

وكان الطبيب ابن ماسويه يعوده كل يوم من قبل الخليفة لينظر ما به من علة ، فيقول له : « يا أبا عبد الله ، أنا أميل إليك وإلى

أصحابك . . . ووالله ما بك من علة إلا الضعف ، وقلة الطعام والبرّ » .

ولـكن أحمد يمضى فى صيامه وقلة الطعام والبر ، لا يلوى على كلام ابن ما سويه .

ويدرى أن الخليفة أمر أن يشترى له دار بسرَّ من رأى ليقيم فيها حياته محدثا بحديث رسول الله ﷺ ، فتعظم به المحنة ، وتزداد الأزمة انقباضاً وحدَّة ، ويدعو صالحاً ابنه ويقول له : « لئن أقررت لهم بشراء الدار لتكونن قطيعة بينى وبينكم ! . . إنما يريدون أن أحدث فيكون هـذا البلد حبسى ! . . وما حبسى إلا جوار هؤلاء ! . . والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان أيام المعتصم ، وإنى لأتمنى الموت فى هـذا ! ! إن هـــذا فتنة الدنيا ، وكان ذاك فتنة الدين » .

قال صالح : جعل يضم أصابع يده ، ويقول : « لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها ! » ثم يفتح أصابعه ! .

وكانت رسل الخليفة لا تنقطع عن أحمد يرسلهم إليه كل يوم ، براً به وتلطفاً إليه . . . فهذا محمد بن معاوية يقول له : أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويقول : تقيم ها هنا تحدّث ... فيجزع أحمد لأمر لا بد بمخالفته ، ولا طاقة له بقبوله ، فيلوذ إلى الاحتجاج بالمرض : « أنا ضعيف » . . . ويضع إصبعه على بعض أسنانه ويقول :

« إن بعض أسنانى يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدى » .

ويأتيه رسول آخر يعرض عليه أن يزور الخليفة ، ويومىء إلى ذلك بطرف خفى بقوله : « أمير المؤمنين مشتاق إليك » . . . فيسكت . . !

وتتوالى الرسل تقول له : « يا أبا عبد الله لابد له من أن يراك » فيسكت ولا يجيب . . . فإذا انصرفوا قال لابنه صالح : « ألا تعجب من قولهم ، لابد له من أن يراك ؟ » .

ولكن الخليفة يلح فى المقابلة ! ويتلطف فلا يعرض على أحمد ميعاداً بعينه ، بل يترك له تحديد الوقت الذى يلائمه ، فيجىء يعقوب ويقول :

يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين مشتاق إليك ، ويقول لك : « انظر اليوم الذى تصير إليه فيه ، أى يوم هو حتى أعرفه ؟ » .

ويرى أحمد نفسه أمام أمر من الخليفة لابد له من إجابته أداء لحق السمع والطاعة ، ويتأدب بإزاء أدب الخليفة فلا يقبل أن يحدد موعد المقابلة ويتركه لمن يهمهم الأمور ؛ فيقول للرسول : « ذلك إليكم » .

فيقول الرسول : يوم الأربعاء خال .

لم يكن فى تلك الفترة شىء أبغض إلى نفس أحمد من هذا اللقاء !

إنه الملك يحنى هامته له ، وقد أقبل عليه يخطب وُدَّه ، حاسراً التاج عن مفرقه ، متجرداً من كل شارات الجلالة إجلالا لمكانه » . . . فماذا يبتغى أحمد ، وهى منزلة لايحلم بها حالم من طلاب الدنيا ؟ .

إن أحمد لا يبتغى شيئا من ذلك ، ولا ينشد إلا المعافاة منه . . إنه لا ينظر إلى ما هو فيه إلاعلى أنه محنة ، ولا ينظر إلى المتوكل ، إلا على أنه معتصم ولكن من طراز آخر . وما المال والجاه والقرب ، إلا سياط هذا المعتصم الجديد . . . سياط لا تلهب الأعصاب ولا تحرق البدن ، ولكن تلهب حساً قدسياً فى وجدانه . يجد لسعة المفزع دون أن يدرى له كيفاً أو يستطيع عنه إبانة ! .

لقد عانى أحمد من بلاء هذه المحنة ، أو من بلاء هذه العافية إلى الآن فوق ما يطيق . . . وجاء هذا اللقاء ، لقاء يوم الأربعاء الموعود بما لم يجئ مثله من قبل ، فهو لا يتمنى على الله إلا أن يعافيه من أزمته . . . فهل يجيبه سبحانه إلى ما يتمنى ، وهو جل شأنه الذى يقوله فى الصابرين من عباده : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ ؟

يا لله ! ما أجمل كرامة أولياء الله عليه ! . . وما ألطف معافاته لهم مما يكرهون ! . . وما أجمل ما يصنع لهم فى الخفاء لكشف كروبهم وهم لا يحتسبون ! .

ماذا كان يوم الأربعاء على قلب أحمد ؟ !

وماذا كانت شمس ذلك اليوم فى مرأى بصره وهى تطلع ؟

وأى كرب ذلك الذى كان يجثم على صدره وهو ينتظر قدوم رسول الخليفة ليصحبه إلى المقابلة ؟ ! .

وماذا كان من حاله حين هبط عليه الرسول المرتقب فجأة ، لا ليصحبه إلى الموعد ، بل ليقول له : « البشرى يا أبا عبد الله ! » أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول : « قد أعفيتك من الركوب إلىَّ . . وإلى ابنى المعتز . . وإلى ولاة العهود . . وأعفيتك من لبس السواد . . . فإن شئت فالبس القطن . . . وإن شئت فالبس الصوف . » ! .

لقد هبط الفرج المفاجىء عليه هبوط النور فى العين المظلمة . . واهتزت السريرة المكظومة المحترقة تتنفس الصعداء وتنشق تلك البرودة العذبة التى أقبلت عليها بنفحات قدس الله . وانطلق اللسان الشاكر الذاكر يسجل لله نعمته : الحمد لله . . الحمد لله .

كانت الدار التى نزل بها أحمد فى « سامرًّا » تستقبل كل يوم عديدا من رجال الدولة وغيرهم . يغدون عليها لزيارته والاطمئنان على حاله . . . وكان ولداه عبد الله وصالح يقومان عنه باستقبالهم وتحيتهم. أما هو فكان لايخرج إليهم من حجرته وصلاته إلا قليلا . فانحدر صالح إلى بغداد يوماً لبعض شأنه ، فأمر عبد الله أن يلحق به ، وقال له : الزما بغداد ، ولا يخرج أحد منكما إلى ، فإنما أنتم آفتى ! . . والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أخرجت منكم

واحداً معى . . . لولا مكانكم منى فلمن كانت توضع هذه الفرش ؟
ولمن كانت توضع هذه المائدة ؟ » .

خلت الدار على أحمد بعد سفر ولديه ، شملها سكون ووحشة ،
وطويت الفرش على ما صدق ظنه . وانقطع مجىء المائدة ، وقل
الوارد من الزوار ؛ وأمعن الشيخ فى خلوته ، وصيامه وعبادته ؛
وأمعن فى الضعف والهزال . وساءت صحته . . ولم يعد للقوم مأرب
من مقامه بينهم على هذه الحال . . وهو ما كان يريد .

سأل عنه الخليفة يوماً فقيل له : إنه عليل . . . فقال : « قد
كنت أحب أن يكون فى قربى . . . وقد أذنت له » .

وجاءه البشير بذلك فى جوف الليل : قد أذن لك الخليفة . . .
وهذه ألف دينار لنفقتك ، ونحن بسبيل تهيئة حراقة لك تنحدر
بها فى دجلة إلى بغداد .

وانقضت بذلك محنة أحمد بسر من رأى ، وانكشف عنه ما كان
يجد من الكرب والفتنة ، وقال للرسول : أما المال ، فلا حاجة لى
به ، « وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره » . وأما الحراقة فيغنى عنها
دابة من دواب البريد ، وهى أرفق بى وأيسر .

كانت محنة الجور من السلطان أرفق بأحمد من محنة إقباله عليه
بالجاه والعطاء والمال ! .

كان يريد أن يسلم له دينه ويقينه ، أو يسلم له قلبه ووجدانه : ولا آفة للإيمان إلا حب الدنيا ، ولا آفة للقلب إلا الركود إلى زينتها . . . فإذا فسد الإيمان ، وهلك القلب ، فأى شيء يكون المرء عند الله جل ثناؤه ؟ .

وقد يعظ الناس بعضهم بعضاً بمثل هذا الكلام ، فيكون وعظهم من قبيل التقرير لأمور نظرية ، ويكون تقبلهم له من قبيل الارتياح إلى الكلام الحسن الذى لا يكلفهم قليلا ولا كثيراً من مشقة الصبر أو خشونة المجاهدة . . أما أحمد رضى الله عنه فقد أبصر تلك الحقائق رأى اليقين والبصيرة ، فشمر لها على حذر ، وتجرد لها على خشية من الله ، ورغبة صادقة فى السلامة والأمن .

لقد نشأ له فى خفايا نفسه عينان لا كالعيون ، تبصران له ما فى عالم المعانى من الحقائق والقيم . . . فكان يمسى ويصبح ، ويغدو ويروح ومعالم هذا الأفق الخفى ساطعة فى نفسه . شاخصة لوجدانه ، فهى بالنسبة له أمر واقع ، وشىء حاضر قائم ، لا سبيل إلى تجاهله أو الانصراف عن خطورة شأنه .

إن الدنيا المقبلة عليه بجاهها ومالها وكل زينتها ، لا يراها هو كما يراها سائر الناس . . إن حلاوتها فى القلب هى سُمه الزعاف القاتل وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم فى رأى الناس ، إن هى إلا الإعصار المحرق الذى يأتى على ما أنشأ الإيمان فى رياض النفوس .

كان أحمد يرى كل ذلك رأى العين والبصيرة . . . فهل يرفع الـكأس إلى شفتيه وهو يعلم أنه السم الزعاف ؟ . . . وهل يستقبل الإعصار فى طمأنينة وهو يرى ألسنة الحريق واللهب تمتد إليـه لتطويه فى ثناياها ؟

ذلك هو وجدان أحمد ، وتلك هى حقيقته التى كان يعيش فيها بين الناس . . يرى ما لا يرون ، ويدرك مالا يدركون ! ! .

وكان شديد الحرص ، أن يجنب أبناءه ما يجنب نفسه من آفة الدنيا ، وأن يحميهم مما حمى نفسه منه ، وفيه خيرهم الحق ، ونجاتهم من كل شر ، ولـكن هل يبلغ صوته آذانهم ، وهل يعون عنه سمو الهدف الذى يريد ؟

لقد عاد إلى بغـداد ، واستقر بين بنيه وأهله ، فأقبل على ابنه صالح يقول له : « يابنى ، أحب أن ندع هذا الرزق الذى نأخذ من الخليفة ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببى » .

قال صالح : فسكتُّ .

قال أحمد : مالك لا ترد ؟

قال صالح : أكره أن أعطيك شيئا بلسانى ، وأخالف إلى غيره . وقـد كنت أشـكو إليك فاقتى وكثرة عيـالى ، وكنت تدعو لى ، فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك .

قال : ولا تفعل ما أقول لك ؟

قال صالح : لا

فغضب أحمد وطرده من مجلسه ، وأقام جداراً يسد ما بينه وبين بيته .

قال صالح : وكان إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً اغتم وطوى ليلته فلم يفطر . . . وظللت أشهراً لا أدخل عليه .

فوجهت إليه : يا أبت ، قد طال هذا الأمر علىّ ، وقد اشتقت إليك .

فسكت . . . قال : فدخلت إليه وأكببت عليه ، وقلت له : يا أبت تدخل على نفسك هذا الغم ؟ فقال : يا بنى ، يأتينى ما لا أملكه !

وتكلم عبد الله بن محمد المعروف ببوران ، وقال : يا أبا عبد الله صالح يرضيك لله .

فقال : يا أبا محمد ، والله لقد كان أعز الخلق على . . وأى شىء أردت له ؟ ما أردت له إلا ما أردت لنفسى !

فقال صالح : يا أبت ، ومَنْ مِنْ خلق الله الذين رأيتهم أو لقيتهم ، يقوى على ما قويت أنت عليه ؟

فغضب أحمد وقال : وتحتج على ! ؟

وانقطع الراتب شهوراً عشرة ، عن كل شهر أربعة آلاف ، وارتاح أحمد بعض الشىء . ولكن الخليفة يعلم ، يبلغه ذلك ،

فيأمر بالأربعين ألفاً أن تحمل للفور إلى ولد أحمد. فلما جاءت أرسل إليه صالح ينبئه، فسكت قليلا .. وجعل يضرب ذقنه بيده ساعة .. ثم رفع رأسه، وقال: «ما حيلتي إذا أردت أمراً، وأراد الله أمراً؟»

وقدم المتوكل فنزل بظاهر بغداد في طريقه إلى المدائن، فهل خف أحمد إلى لقائه وتحيته مع من خف من الأعيان والكبار والشيوخ؟

لقد عرفنا مذهبه، فهو يريد أن لا يرى أحداً من أرباب الجاه والسلطان، وأن لا يراه أحد منهم.!

لم يخف إلى لقاء الخليفة، بل لم يحدث نفسه به .. بل ذهب إلى ما هو أكثر من ذلك. قال لابنه صالح: «يا بني، لا تذهب اليوم حتى لا يراك أحد منهم فيذكرني بك»

ولكن الخليفة ينظر في وجوه الأعيان، فيرى كل وجه لا يريده .. ولا يرى الوجه الذي يحب أن يراه!

وكان صالح جالساً بظاهر الدار على باب الزقاق، في اليوم التالي، وكان يوم مطر .. قال: وإذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر عليه في موكب عظيم، فلما رآني قال: سبحان الله! لم تصل إلينا حتى تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك، حتى وجه بي إليه.

ونزل خارج الزقاق، وجهد عليه صالح أن يدخل على الدابة،

فلم يفعل ، وجعل يخوض المطر . . ودخل على أحمد وهو قاعد على زاوية من البيت عليه كساء مربع . . فسلم عليه ، وقبل جبهته ، وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول : كيف أنت فى نفسك ، وكيف حالك ؟ ويسألك أن تدعو له .

قال أحمد : ما يأتى على يوم إلا وأنا أدعو الله له .

قال يحيى : وقد وجه معى ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، أنا فى البيت منقطع من الناس ، وقد أعفانى من كل شىء أكرهه !

قال يحيى : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا ! .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، تلطف فى ذلك . . ودعا له .

* * *

تلك هى عزة الدين ، وذلك هو الملك الحق !

أشرف أحمد على النهاية ، وأشرف معها على الغاية ، وأخذت أيامه الأخيرة تدنو به رويداً رويداً إلى باب الخلود .

أطال الصوم . . وأدام الصلاة ، لا يصلى إلا قائماً ، يمسكه ولده إذا قام ، ويسنده إذا ركع أو سجد . . واجتمعت أوجاع الخصر .

قال ابنه صالح : أما عقله فلم يزل ثابتاً صافياً .

وذاع فى بغداد أن صدّيق العصر يوشك أن ينتقل إلى جوار الله .

وفزع الناس : يهوديهم ، ومجوسيهم ، ومسلمهم ، ونصرانيهم . فقد كان أحمد ملكاً للإنسانية بأسرها ، ورحمة لكافة من أظله لواء الإسلام أو ذمته .

وأرهفت الأسماع ووجفت القلوب ، حتى إذا مضت ساعتان من يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين نعاه الناعى ! .

ووقف دولاب الحياة فى بغداد بأسرها عن كل حركة ، وفرغت المدينة العظيمة ليوم إمامها الجليل . والكل ما بين حزين مكتئب ، وباك منتحب . حتى أسدلوا عليه التراب فى جدثه المنور .

ونظر رجال الملك من زوايتهم يقدرون منها موت أحمد ، ونظر رجال الاجتماع ، ونظر رجال الحقيقة .

أما رجال الملك ، فقد بعث الخليفة حازراً يحزرون له عدد من يصلى على أحمد من الناس صلاة الجنازة ، فقد كان له فيهم ملك وسلطان من وراء ملك الخليفة وسلطانه . فعاد الحازرون يذكرون له مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة ، عدا الذين لم يتمكنوا من الصلاة ! !

أما رجال الاجتماع ، فقد لخصوا أثره بقول الدركانى : وقع المأتم والنوح يوم مات أحمد بن حنبل فى أربعة أصناف من الناس : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس !

أما أهل الحقيقة ، فيقفون طويلا على ما كان منه فى لحظاته

الأخيرة ، وقد جاءت سكرة الموت بالحق ، وكشف عنه غطاؤه ، فيرى بعيني بصره وبصيرته ما كان مستوراً عنه من الحقائق . . ويرى إبليس وقد وقف فى ركن من الحجرة يعض على أنامله من الغيظ . . ويسمعه يقول :

لقد أجهدتنى يا أحمد أكثر من ستين عاماً ، وها أنت ذا تفلت منى اليوم ، وتفوتنى دون أن أنال منالا !

فيقول له أحمد : لا . . إنى لم أفتك بعد ، ولم أفلت منك ، فما يزال فى الصدر أنفاس تتردد ، وما يزال فى البدن خفقة من حياة ، وما يزال لكيدك فيها متسع !

قال ابنه عبد الله فقلت : يا أبت إيش هذا الذى قدلهجت به ؟ فقال لى : يابنى ، ما تدرى ؟

فقلت : لا !

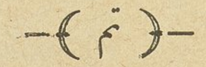
فقال : ابليس لعنه الله ، قام بحذائى عاضاً على أنامله ، يقول : يا أحمد فتنى !

فقلت له : لا بعد ، حتى أموت .

وتعاقبت الأنفاس التى تتردد فى صدره ، تخرج واحداً فى إثر الآخر حتى لفظ آخرها . وانطفأت خفقة الحياة ، الحياة التى كانت باقية فى بدنه .

وأطبق فمـه !

وأغمض عينيه إلى الأبد




المطبعة السلفية


2828

المطبعة السلفية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح بالروضة تليفون ٢٩٣٦٤